" المدينة المنورة "

١ - وصولنا

من البعد - ربما نحو عشرة أميال في خط مستقيم - نظرت أسفل لأول مرة لمدينة النبي ﷺ، وهي في إطار رمادي - أزرق باهت من الصخر والصحراء يستحيل على المرء أن يفرق فيه بين الخط السميك من نخيل الواحة و السلسلة المنخفضة من الحمم البركانية الملفوظة التي تكاد تلفها تماماً بإطارها البيضوي، الواقع داخل جبال الجرانيت والبازلت. أما المدينة نفسها، فإن شيئاً منها لم يظهر بعد سوى المآذن النحيلة لمسجد النبي ﷺ - المنارة التي ترسل دعوتها بالإيمان والأمل طولاً وعرضاً، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. لقد كانت هي مرشدتنا لما تبقى من الرحلة، ونحن نسرع منحدرين في السفوح بين التلال الصغيرة نحو بستان النخيل الجميل في أبيار علي، في بطن وادي الحسى، كما يسمى هذا الجزء بالذات من وادي العقيق - وهو الخط الرئيس لتصريف مياه حوض المدينة ورافد لوادي الحمض الكبير.

وبقدر ما كنت قد قرأت عن مدينة الرسول ﷺ ومنطقتها، فإني أقر بأني لم أكن مهيأ أبداً لا لسحرها ولا لمعناها. لقد تضافر التاريخ والرواية منذ عهد بعيد على طبع توقعات في عقلي لروعة كان مصيرها الزوال الآن. وكلما اقتربنا أكثر فأكثر فوق الفاصل البائس من حقل الحمم، الذي يفصل المدينة من منطقة وادي العقيق، وتوقفنا برهة على حافته الشرقية تحت التل ذي الأبراج المسمى العصيفر، أبصرته كما لو كان هيكلاً لمجد سالف، خالياً مما يذكر بتلك العظمة الأسطورية للماضي أو ما يوحي بأي أمل في المستقبل، ماعدا بناء واحداً عمره أقل من قرن - مسجد نبي الإسلام (عليه الصلاة والسلام) بقبته الخضراء

البسيطة ومآذنه الأنيقة التي تشير في كبرياء إلى السماء في لونها الرصاصي. وما عدا ذلك فيبدو لأول وهلة أنه خراب، فالواحة العظيمة ليست سوى حزام متعرج من النخيل، شاسع الطول ولكن بلا كثافة: أسوار المدينة غير متصلة قد شوهتها الإضافات والإصلاحات: والمدينة نفسها ثوب خلق أوسع من الجسم الذي بداخله. ولكن التعرف عن كثب على المدينة قد يكشف عن سحر غير متوقع، وإن خلا من أي شيء يمكن وصفه بالجمال، سوى المسجد نفسه، لقد كانت أيامي في المدينة ممتعة حقّاً، فوق التوقعات التي كان قد أوحى بها انطباعي الأول. فالذي لاشك فيه هو أنها مدينة لها روح. إن جاذبيتها للروح لا للعقل. إن عاطفة الارتباط بالمكان، الذي نمته ورعته قرون طويلة من التقديس والإجلال المحلي تتخلل كل جو المدينة بالقدر نفسه الذي تهيمن فيه قبة مسجدها على المنظر الطبيعي فيها. وإن كانت أكثر عرضة للعواصف والأعاصير السياسية العالمية، فإن مدينة الرسول ﷺ لابد أنها ظلت أقرب إلى نفسها دائماً - في كل الأساسيات - من تلك المؤسسة التي تملأ وادي مكة الآن، وفاضت في مجاريها الفرعية وتجاوزت سوق مكة القديم، حيث كان محمد ﷺ قد غرس راية عقيدته العظيمة.

إن المدخل إلى المدينة من جهة الغرب عادي. فحقل الحمم البركانية يتدفق في السهل بصورة غير منظمة، في ألسنة كأنها الفحم الحجري أو خبث الحديد. وشبهها بمدينة من "بلادنا السوداء"[1] يرسخه القرب المباشر من الفناء الواسع لمحطة السكة الحديد، التي بمحاذاة الجانب الجنوبي منها، ولنحو نصف ميل يستمر الطريق إلى باب العنبرية يلاصقها من جهة الجنوب مسجد كبير بمئذنتين عاليتين

(١) ربما كان المؤلف يقصد بالأرض السوداء بريطانيا التي تأثرت مدنها بالأدخنة المتصاعدة من المصانع وعوادم السيارات والقطارات. (المراجعون).

وقبة عريضة منخفضة الارتفاع، ومن جهة اليسار محطة السكة الحديد نفسها. وهي بناء طويل حسن البناء، من البازلت، يتجه شرقاً ليعطي الحاج الزائر لأول مرة، أو المسافر، مشهداً للحرم نفسه، كما يسمى المسجد الكبير.

وعند البوابة سَدَّ الكتبة المدققون الطريق، مسلحين بأقلام الرصاص والسجلات طالبين أسماءنا ومعلومات أخرى عنا، وكنت نتيجة ذلك قد أسأت الفهم وحسبت أن هؤلاء لابد وأنهم كانوا قد أمروا بالوقوف هناك بعد أن كانوا قد أخطروا بحضورنا ببرقية من جدة أو عن طريق رسولنا الذي كنا قد أرسلناه أمامنا من أبيار علي قبل ساعة أو ساعتين ليخبر بقدومنا. وأشرت عليهم أنهم بإمكانهم الحصول على كل المعلومات التي يريدونها من الأمير فيما بعد، وبعد تردد سمحوا لنا بالمرور، ليعاتبنا الحاكم بالهاتف فيما بعد ذلك بدقائق لعدم إعلاننا إياه بقدومنا وشخصياتنا فوراً. ولم يكن الملك أو الحكومة قد أخطر الأمير ليتوقع قدومنا. والغريب في الأمر أن رئيس مرافقينا النجدي، حمد - وهو مرافق غير ذي فائدة كما سيثبت فيما بعد - كان قد بلغ بالوصول الوشيك لأربع سيارات ومعها شاحنة للاسلكي ومهندس مصري دون أن يفصح عن شخصية رئيس المجموعة - ربما لعدم رغبته في التصريح بأنه لم يكن هو صاحب ذلك المنصب.

وأمير المدينة هو عبد العزيز بن إبراهيم، شخصية نجدية ذات مكانة، يبدو أنه من أصل دوسريٍّ[1]، وإن كان يعرف أكثر بأنه شخصية مهمة من أهل حائل

(١) الصواب أن آل إبراهيم، من آل فضل ورد في كتاب كنز الأنساب ومجمع الآداب، للشيخ حمد بن إبراهيم الحقيل (ط٨ ص١٣٠-١٣١) أن آل إبراهيم (ذرية إبراهيم بن عبدالرحمن منهم من سكن حائل، ومنهم الأمير عبدالعزيز بن إبراهيم وكان من ولاة الملك عبدالعزيز) ويرجع آل إبراهيم إلى آل يحيى من آل رباح من آل غزي الذين ينتسبون إلى قبيلة الفضول وهم أبناء فضل بن ربيعة الطائي. (المراجعون).

حيث عاش لسنوات طويلة مع آل رشيد لجفوة ابن سعود له لسبب ما لا أعرفه. وعند استيلاء ابن سعود على حائل في ١٩٢١م تصالح مع مليكه الطبيعي والحتمي، الذي وجد لديه عملاً مجزياً على حدود الحجاز، له علاقة بالعمليات التي أثمرت عن النصر النهائي للسعوديين. وبعد الخدمة لسنوات في أبها، عاصمة مرتفعات عسير، أصبح حاكماً للطائف، ومنها رقي بعد سنوات إلى منصبه الحالي المهم والشاق، الذي يبدو أنه يناسبه تماماً ويصرف أموره بأسلوب أمراء العصور الماضية. فهو في مظهره، بقسماته النجدية الواضحة المنتهية بلحية قصيرة، مثلثة الشكل، كأنه خرج لتوه من رسم جداري غائر. أما في تصرفاته، فقد كان جاداً، مصيباً إلى درجة عالية في كل المراسم الرسمية والدينية، وودوداً مع جفاف، وحاسماً.

وحين وصلنا بابه كان جالساً في نافذة مقوسة مزودة بشعريه. . في بيت متواضع، نصف قبو، واقع في الجانب الشمالي من الشارع الرئيس من العنبرية. وبعد نزولنا بضع درجات إلى الصالة المظلمة، تحت مستوى الشارع ببضعة أقدام، صعدنا مرة أخرى بضع درجات أخرى لغرفة خارجية أشد ظلمة، خلعت فيها الأحذية قبل دخولنا قاعة الاستقبال. وبعد التحايا التقليدية جلسنا في أماكننا على المقعد ذي المسند المجاور للنافذة مع غيرنا من الزوار والمعاونين الذين كانوا في صفوف حول القاعة. وبعد مزيد من التحايا التقليدية جاءت القهوة التقليدية. وعند ذلك سأل الأمير : " هل من أحد يخبرني الآن من هؤلاء الناس ؟ " وكان ذلك على الأقل مباشراً وغير رسمي، فأخذت أوضح له من نحن - وتحرك الأمير كمن يريد أن ينهض ليحتضنني وأنا أفعل ذلك، ولكنه استقر وعاد لوضعه السابق مصغياً باهتمام مؤدب - ولماذا جئنا.

وبعد أن فرغت، تكلم الأمير من قلبه وبلطف. ليته كان قد علم بأني سأزوره حتى يعد ضيافة أليق بشخص استحق التكريم لثلاثة مبررات. أولها، وإن لم يكن يعرفني، فإنه عرفني كصديق قديم للعرب في الأيام الأولى حين كان هناك حاجز الدين بيننا، الذي لايشجع الاتصال وإن كان بين الأصدقاء. والثاني، بما أن ذلك الحاجز قد زال الآن، فإنه يرحب بي كصديق، بل كأخ، من دون عارض أو عائق. والثالث، أني مرحب بي ثلاثاً كشخص صداقته بذلك الرجل (مشيراً إلى الملك) معروفة في طول الجزيرة العربية وعرضها - وما على أصدقاء الملك إلا الأمر في المدينة، ما دام هو حاكماً فيها باسم الملك، خادماً مخلصاً ومطيعاً بإذن الله.

أما ما تبقى من الوقت، في هذه المقابلة الأولية فقد أخذه الحديث عن أنسب الأماكن لسكني خلال فترة إقامتي، وقد تخلل ذلك الحديث شرب الشاي والقهوة اللذين كانا يقدمان في فترات، وأخيراً البخور زكي الرائحة الذي أخرجه الأمير من جيبه وألقى به في نار الفحم المتقدة في مبخرة جاءه بها خادم. إن الخزنة، التي كانت خزانة الحرم في السابق وأصبحت داراً رسمياً للضيافة، مشغولة الآن، لإقامة سفير أفغانستان في القاهرة فيها ؛ لكن هناك دارين، إحداهما مجاورة لبيت الأمير والأخرى خارج أسوار المدينة، علينا الاختيار بينهما بعد فحصهما حالما نفرغ من إيداع شاحنة اللاسلكي في محطة اللاسلكي، التي تبعد نحو ميل خارج باب الشام[1]، في الطريق الشمالي. ولذلك فإننا استأذنا الأمير، واعدين إياه بالعودة في الساعة الثانية (بعد الغروب) للعشاء.

(١) كذا في الأصل ويقصد «الشامي». (المترجم).

وما أن تخلصنا من شاحنة اللاسلكي بأسرع ما أمكن، وتعرفنا على يحيى بيه، السوري التركي، مدير البريد والبرق - الذي تفضل مشكوراً بتهيئة حمام لي ولتغيير ملابسي في إحدى الغرف الكثيرة الخالية في البناء الضخم لمحطة اللاسلكي وبتقديم وجبة خفيفة وشاي - حتى عدنا للمدينة في رحلة استكشاف للسكنين المتنافسين. وفي الواقع فإننا زرنا واحداً منهما فقط وقررنا اختياره؛ هو الفيروزية، بستان ودار خارج الأسوار بقليل، ما بين باب الشام[1] وباب بصري (نسبة لبصري باشا، الحاكم التركي السابق للمدينة)، الذي كان جذاباً بالقدر الذي قطع الأمل في أن يكون البيت الآخر (داخل المدينة وبلا حديقة) أفضل منه. ولحسم الموضوع، فإننا نزلنا فيه فوراً، وأنزلنا أمتعتنا من السيارات، وتخلصنا منها بأن وزعناها في مختلف الغرف، حسب توزيعنا السريع للغرف بين الأفراد. فاخترت لنا نحن الثلاثة، أنا وكردي وفخري، صالوناً واسعاً مفتوحاً ذا أعمدة يواجه حوضاً واسعاً من الحجر يصب فيه ماء البئر (بعد مروره بالمطبخ والحمام أولاً)، ليسقي عدداً كبيراً من النخيل.

أما البيت نفسه، وهو من ثلاثة أدوار، فإنه يلاصق الصالون من الجانب الغربي، وأخذنا الدور الأرضي كله - تاركين الغرف لحراسنا النجديين والسائقين، بينما احتفظنا نحن بالغرفة المجاورة للحوض لأمتعتنا الخاصة. أما عائلة صاحب البستان (عدة عائلات فيما يبدو)، أو الجنائني المسئول، أو ربما مستأجرين، فإنهم أقاموا في الدورين العلويين من الدار، نسمعهم أحايين عدة ولا نراهم إلا نادراً، فيما عدا الأطفال، الكثيرين، الذين كانوا يغامرون بالدخول في منطقتنا. ولم نحتج إلا لدقائق لنستقر - لقد ظهرت الكراسي

(١) كذا في الأصل ويقصد «الشامي». (المترجم).

والمساند بما يشبه السحر - وسرعان ما انطلقنا لنتعشى مع الأمير، عشاءً بسيطاً من الأرز ولحم الضأن واللبن الرائب على الطريقة النجدية الأصيلة، قبل رجوعنا لراحة ليلتنا الأولى في مدينة الرسول ﷺ، بعد أن قررت تأجيل زيارة قبره للغد فأكون قد نلت القسط الكافي من الراحة لأداء هذه المهمة[1].

ثمة شيء في إدارة مكان كالمدينة يتسم بالبساطة والكفاءة. فكل شيء يقع في موقعه الصحيح من إشارة البداية. لقد كنت نوهت من قبل بالسرعة التي اتخذ بها مسكننا الخالي مظاهر غرف المعيشة. لقد وقف عدد من الخدم (غير أكفاء جداً، ولكنهم حسنو النية) على خدمتنا في لحظة. فالشاي والقهوة جاءا فوراً، وأغرقنا بسيل من الاقتراحات لزيادة راحتنا، وقبل أن أستفسر عن كيفية تحقيق غرض زيارتي كان مزوري، الشيخ أحمد الجنيني، واقفاً أمامي يسألني متى أريد زيارة قبر الرسول ﷺ. واختفت ملابسنا المتسخة من الرحلة، لتغسل، وجاء خياط ليثري محتويات دولاب ملابس كردي. لقد كان كل شيء تلقائيّاً، ينجز نفسه بنفسه. ولم أعلم إلا بعد حين أن العبقري المشرف على راحتنا كان أسعد أفندي، المدير المحلي للضيافة الحكومية وهو رجل مدني، دائم الابتسامة، في أقل من منتصف العمر، أهم ما يلفت النظر إليه أنه له ثلاثة إبهامات بالإضافة إلى العدد الطبيعي للأصابع. إن له إبهامين توأمين في يده اليمنى، أحدهما متفرع بزاوية من ثلاثين درجة عن أسفل الآخر، الذي يبدو في شكل طبيعي. والإبهام الإضافي كامل الهيئة بمفصل وظفر تامين وإن كانا أصغر حجماً مما في التوأم. وكل المظاهر تدل على أن هذا الإبهام الإضافي لا دور له. كان عليّ أن أوضح أن كردي مهندس مصري متعاقد مع شركة ماركوني لتركيب اللاسلكي في مكة والمدينة. وفخري، المذكور سابقاً أيضاً، سكرتيره.

(١) المشروع أن الزيارة تكون لمسجد النبي ﷺ، ثم السلام عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر، مع النهي أن تقصر الزيارة على قبره الشريف ﷺ وحده. (المراجعون).

٢ - مدينة الرسول

إن المدينة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام - المدينة، والمعسكر، والملحق. والمنطقة كلها محاطة بسور، في شكل بيضوي تقريباً متجه نحو الجهات الأربع الرئيسة، طوله الأقصى نحو ٢٢٠٠ خطوة (نحو ٦٧٦، ١ متراً) من الغرب إلى الشرق، وعرضه نحو نصف تلك المسافة من الجنوب إلى الشمال في أعرض المواضع من المنطقة المسورة. وبهذه المناسبة، فإن خارطة بيرتون في ١٨٥٤م، تعطي طولاً وعرضاً من ١٢٨٧ و ٨٢٣ خطوة بالتتالي، وتجعل منطقة العنبرية أصغر بكثير من مساحتها الحالية (المتهدمة في معظمها). كما إن إلدون (رتر)، في ١٨٢٦م، جعل القياسين ١٧٠٧ و ١١٧٣ خطوة بالتتالي، ولكنه يبين مساحة متهدمة غير مخططة إلى الغرب من العنبرية، التي بلا شك، تفسر الاختلاف بيننا في القياسات. ومن الواضح أن نمو هذه المنطقة واندثارها بعد ذلك كانا بعد زمن بيرتون. والمحور الشمالي الجنوبي يقسم المدينة إلى قسمين متساويين، يحتل القسم الغربي منهما الملحق أو منطقة العنبرية، التي تلاصق طرفها الجنوبي الغربي محطة السكة الحديدية وحوشها الإضافي الواسع الحاوي للورش والغرف الضرورية. ومن هنا يمر خط السكة الحديدية بالطرف الغربي للسور، في اتجاهه شمالاً، أما الحد الشرقي لمنطقة العنبرية فإنه يمثله مجرى السيل الواضح المسمى «أبو جيدة». وفي الجنوب، داخل السور الذي بلي وضعفت معالمه هنا وخارجه، بساتين وحدائق نخيل غير غزيرة، إلى جانب قرية صغيرة بائسة اسمها مصر. وفي الجانب الشمالي تطل الأسوار المتهدمة من منطقة العنبرية، وعدد من المنازل المتفرقة المهجورة الآن الواقعة خارجها، على الصحراء الصخرية التي يخترقها مجرى «أبو جيدة» في طريقه ليلتقي بمجرى

الماء الرئيس، وادي العقيق. إن منطقة المحطة، بطبيعة الحال، حديثة إلى حد ما، تؤرخ ببداية هذا القرن، مثلها مثل الثكنات التركية لا التكية الخيرية المصرية البائسة المواجهة لها من الجهة الأخرى من الشارع الرئيس المؤدي من المحطة إلى المدينة. وباقي منطقة العنبرية يمثل، كما لو كان، مقياساً تلقائياً للمد والجزر في رفاهية المنطقة. ففي وقت زيارتي كانت هيئتها المتهدمة الشاملة، المستترة وراء المباني التي لاتزال في بعض هيبتها ومطلة على جانبي الشارع، تحكي قصة محزنة عن واقع الحال. لقد انكمش عدد سكان المدينة من نحو ٨٠٠٠٠ نسمة في الماضي إلى مجرد ١٥٠٠٠ نسمة نتيجة للحرب، ثم هبط إلى ما دون ذلك الرقم المنخفض بكثير فيما بعد. ولا شيء سيعيد الأمور إلى ما كانت عليه سوى خط السكة الحديدية، وهو مشروع يبدو بعيد المنال بالرغم من المؤتمرات التي تعقد من حين لآخر لمناقشة الموضوع ثم تتفرق لتنساه. وفي هذه الأثناء ستظل العنبرية في خرابها، والبدو الفقراء ينصبون خيامهم البائسة في ظلال دورها الكبيرة المتهدمة راجين صدقات الحجاج. بل إن الحجاج أنفسهم قد بدأت أعدادهم تقل للكساد العالمي، الذي كانت آثاره حتمية ومبكرة ومدمرة على العمال الزراعيين في الشرق - أهم رعاة الحج.

إن الطريق الرئيس يتجه شرقاً ماراً ببعض الدور الكبيرة إلى اليسار التي تمثل مقر الحاكم وأسرته. وبعد هذه الدور نصل جسر «أبو جيدة» فوق المجرى بهذا الاسم لنصل إلى مكان التخييم المعروف بالمناخة. وهنا ينزل زوار مسجد الرسول عن محفات جمالهم حين لم يعرف الجمل منافسة السكة الحديدية بعد أو السيارات الأحدث منها. وبالرغم من السيارات، فلارتفاع الأجرة التي تطلب ممن يرغب في الانتقال في راحة، فإن كثيرين لايزالون يصلون بالوسيلة

القديمة، بالجمال، ليخيموا في الفضاء البيضوي من المناخة، أو في البيوت أو الخانات التي ظهرت حولها لاستضافة الزوار ليكونوا في حماية من تقلبات الجو. وتمثل هذه المنطقة تقريباً النصف الجنوبي من القطاع الشرقي من الأرض المسورة من المدينة، يحدها في أحد جانبيها مجرى «أبو جيدة» وشريط كثيف من البيوت المرصوصة على ضفته اليمنى. وعلى الجانب الآخر لمنطقة التخييم عدد من البيوت أقل تلاصقاً من الأخرى، حشرت حشراً ما بين المناخة والمدينة نفسها، قد أزيل جزء من السور الذي كان من قبل محيطاً بها تماماً، ليشق فيه طريق عريض، اسمه العينية، الطريق التجاري الجديد النافذ المؤدي من مخيم الحجاج إلى منطقة الحرم. إن باقي سور المدينة كامل في هذه المنطقة، لاتزال بوابته الرئيسة القديمة، باب المصري، قائمة بكل جمالها السابق من أبراج ودعامات، وزقاقها المتعرج بحوانيته المؤدي رأساً إلى البوابة الرئيسة لمسجد الرسول ﷺ، باب السلام.

وبالقرب من جسر «أبو جيدة» ناحية المناخة من مجرى السيل، تقف الكومة التركية لبيت الحكومة مع مسجد بلال، مؤذن الرسول، في أرضه. وقريباً من ذلك أيضاً مسجد آخر، يعرف بمسجد الغمامة. وما بين الاثنين كانت أسرة الخريجي النجدية التي اقترنت بتجارة المدينة قديماً واستفادت منها، قد شرعت في بناء قصر لائق بها في ١٩٣١م، أوشكت على الفراغ منه في ١٩٣٥م، لا يبزه أي سكن آخر في المدينة. وخلف المباني المذكورة أخيراً يقف بيت منفصل بنخيل وأشجار أخرى تزين تجمعه - مكتب رئيس الشرطة، وكان آنذاك موظفاً جذاباً جداً اسمه خالد. وأمام هذا، ووسط منطقة مختلطة لسوق من الأكشاك - بصفة عامة، سوق لعرض المنتجات الريفية كالفواكه، والخضراوات، واللحوم، وغير ذلك - يقف بناء يظهر الاحترام التركي للقوانين الصحية، مبنى

دائري عام (حمامات) بسقف من الحديد المعرج. وفي قبالة مكتب الشرطة، مقابل علامة الرقي هذه، يقف بناء مجلس المدينة، مركز كل النشاطات المحلية ومقر أمين عام المدينة، وهو رجل كبير السن، جذاب جداً ومهذب، سعدت آنذاك، كما سعدت بعد ذلك في زيارتي الثانية في ١٩٣٥م، بمجاذبته أطراف الحديث في مناقشة أحوال مدينته الشهيرة. وفي الطرف الشمالي الغربي من منطقة المناخة بناء آخر مخصص لأعمال الشرطة ومزين ببستان صغير من النخيل، وبعد ذلك بقليل البوابة المعروفة بالباب الصغير، يعلوها مكتب البريد والبرق. وهذا البناء في واقع الأمر يتبع المدينة نفسها، التي يخرج منها في هذا المكان ممر ضيق بين الباب الصغير وباب دمشق (باب الشام)[1] يؤدي إلى قلعة السعيدي القائمة على مرتفع يسير يشرف على منطقة المناخة من ناحية وعلى جانب طريق الشمال الكبير من ناحية أخرى.

إن قلب المدينة بطبيعة الحال هو المنطقة المسورة من كل نواحيها - بما فيها الانقطاع غير المهم المذكور آنفاً - التي تحتل النصف الشمالي، بميلان يسير من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، من القطاع الشرقي من المنطقة المسورة. وفي واقع الأمر، فإن السور الشمالي للمدينة جزء من الإطار الدائري الأكبر المستمر من طرفيها الشرقي والغربي قرب مقابر البقيع وقلعة السعيدي بالتتالي. وكما نوهنا من قبل، فإن السور الجنوبي للمدينة نفسها يسير بين هاتين النقطتين بمحاذاة الطرف الشمالي لمنطقة المناخة - فتكون مساحة المدينة في شكل معين نوعاً ما. إن مظهرها المركزي، الذي لا يبعد عن طرفها الشرقي هو بطبيعة الحال مسجد الرسول ﷺ. فهو، وإن كان قد زيد فيه كثيراً منذ أيامه الأولى،

(١) كذا في الأصل ويقصد «الشامي». (المترجم).

وبكل تأكيد يغطي البقعة التي سكنها الرسول ﷺ، وأقرب صحابته، وأقاربه، عندما قدموا المدينة لأول مرة في يونيو ٦٣٢م. والقول إن هذا الموقع كان مأهولاً آنذاك، فهذا لاشك فيه، لأن أصحاب الرسول ﷺ كانوا قد استقبلوا بحفاوة بالغة من أهل المدينة ؛ لذا فإن في هذا القسم الشرقي من المدينة علينا أن نعين ما يحتمل أنه يشكل قرية من حجم متوسط، لم يبق منها اليوم شيء، ولا مبنى واحداً. إنه لمن المستحيل علينا تخيل شكل المكان قبل ثلاثة عشر قرناً خلت.

وبالرغم من المعلومات الكثيرة التي كتبت عن الموضوع، فإنه من العبث أن نخمن الطريق الذي سلكته ناقة الرسول ﷺ إلى المكان الذي يقوم فيه مسجده، أو الترتيب الذي كانت عليه المساكن التي كانت قائمة في المنطقة المجاورة له[1]. وبكل تأكيد، لقد كان هناك بستان نخيل صغير مواجه لجزء من الأرض الفضاء الواسعة التي بنيت فيما بعد، بينما شغلت ما تبقى منها مقبرة فيما يبدو. إن الأحجار البركانية التي تمثل القدر الأعظم من المواد المستخدمة في البناء في هذا الجزء من المدينة تعطي الانطباع بتاريخ قديم لها، ولكن أقدم تاريخ مسجل فعلاً عن أي بناء - حيث إن عدداً كبيراً منها مؤرخ - أمكنني التوثق منه هو ٧٠٦هـ، الموافق ١٥٠٦ م. فهذا كان وقف استراحة لسكنى الرجال فقط، كما جاء في النص، وبالقرب من باب الحمّام، المؤدي إلى المدينة من حي النخاولة (وهو امتداد شرقي لمنطقة المناخة)، رأيت حفريات متعلقة بالمياه الجوفية،

(١) مما ورد في هذا المجال أن هذا الموقع كان فيه بستان ليتيمين، كما أن بيت أبي أيوب الأنصاري يقع قبالة هذا المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول ﷺ ثم نهضت وسارت قليلاً ثم رجعت وبركت في موقعها الأول نفسه، وهو المكان الذي أقيم فيه المسجد النبوي. (المراجعون).

كشفت عن قاعدة سور المدينة لعمق عشرين قدماً تحت المستوى الحالي لدرب الجنائز. إن أعلى السور الآن وفي هذه النقطة يبلغ نحواً من ثلاثين قدماً أو أكثر، فوق مستوى الشارع. ويبدو أنه كان يزاد فيه باستمرار كلما ارتفع مستوى الأرض، وإنه لمن غير المتوقع أن يكون الأساس الأصلي للسور قد كان في عمق عشرين قدماً تحت مستوى الأرض. ولعله من الأهمية بمكان -وإن أمكن- أن يحسب المرء الوقت الذي استغرقه ارتفاع مستوى أرض المدينة لخمسين قدماً مثلاً. ففي وادي نعمان، قرب مكة، غمرت عين السيدة زبيدة لعمق ١٠٠ قدم في ١٠٠٠ سنة، إن أخذ المرء ارتفاع فتحات الدخول (المانهولات) الأصلية كمقياس سليم. ولكن المرء هناك يتعامل مع واد رملي معرض لسيول موسمية غزيرة. لذا فإنه من الواضح أن ارتفاع التربة في المدينة كان بسرعة أبطأ ومحسوسة.

ويبدو أن المسجد الأصلي الذي كان الرسول قد أمر ببنائه كانت جدرانه من الطين، فوق أساسات وطبقة رقيقة من الحجارة. وإن كان ذلك هو أسلوب البنائين آنذاك، فإنه لمن الجائز ألا يرى على وجه الأرض الآن أي شيء كان ظاهراً تراه العين آنذاك. ولعل الحفريات -وعلى وجه الاحتمال- تكشف أساسات معاصرة لعصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أو متأخرة عنه. أما أقدم البنيان القائم الآن، وكما هو ظاهر على وجه الأرض، فإنه يعود فقط لفترة متأخرة من القرون الوسطى. وإلى جانب الدار المؤرخة المذكورة أعلاه، فإن هناك أخرى في شارع الساحة، منسوبة إلى عصر الأمير المصري المملوكي قايتباي، الذي كان في أوج ملكه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. كما أن هناك، في الشارع نفسه، قرب بناء المحكمة الكبرى ومسكن

رئيس القضاة، بناءين لايزالان يعرفان باسميهما - دار الجنا ودار المبسمة - وإن كان مستبعداً أن ترجعا، في حالتيهما الحاليتين، لأقدم من العصور الوسطى بكثير. ولاشك أن هناك مباني أخرى، لاتزال مستخدمة، ترجع للعصور الوسطى، وإن لم يكن لأوج عصر الخلفاء في المدينة.

والحرم أو مسجد الرسول، في حالته الراهنة، عمره أقل من قرن، ذلك لأنه كان قد أعيد بناؤه بأمر من السلطان عبد المجيد بعد تدمير النيران للمسجد الذي كان قائماً آنذاك. ومادته من حجارة وردية لطيفة، بلورية التكوين، قطعت من سلسلة جبال الجماوات المجاورة للضفة اليسرى لوادي العقيق إلى الجنوب الغربي من المدينة. وربما في الوقت نفسه تم تزيين الحائط الجنوبي بالفوانيس، وكذلك التطعيم المفصل لأعمدة الروضة، ولأجزاء أخرى. وبعد إعادة بنائه على هذا النحو، وفق خطة شاملة حسب تصور الفنان، فإن المسجد الآن بمثابة المعلم الهندسي الرئيس لا للمدينة فحسب وإنما لكل الجزيرة العربية. وبالرغم من تزاحم البنيان حول الجانب الجنوبي للبناء، فإن للمسجد ميزة هي أنه يرى من عدة أماكن خارج المدينة. وفي السنوات السابقة كان المسجد قد تحول إلى حالة من الخراب الشديد نتيجة الإهمال وقلة المال لصيانته، ولكن منذ ١٩٣٤م شرع في إصلاح هذا الأمر بطلبٍ من طلعت حرب، مدير بنك مصر، وعلى نفقته[١]. ولما زرت المدينة في ١٩٣٥م كان العمل على قدم وساق، في المآذن وبالداخل، مما جعل المسجد يبدو آنذاك أقرب لساحة بناء وورشة نجار منه لمكان عبادة. إني لم أرَ المسجد منذ ذلك التاريخ[٢]. ولكن، وبكل تأكيد، فإن الأرضية الرخامية الجديدة

(١) ما أشار إليه فيلبي هنا هو ما قامت به وزارة الأوقاف المصرية في عام ١٣٥٤هـ ببعض الترميمات اليسيرة على نفقة واردات أوقاف الحرمين في مصر وبناء على موافقة الملك عبدالعزيز. وسبق أن قام الملك عبدالعزيز قبل هذا بإجراء ترميمات عاجلة للمسجد، واستمرت الترميمات السعودية إلى أن بدأت التوسعة السعودية الرئيسة في ٢٥ شوال ١٣٧٠هـ، ثم تلاها توسعة الملك سعود والملك خالد والتوسعة التاريخية لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز. (المراجعون).

(٢) زرت المدينة مرة أخرى في ١٩٣٨م، وآنذاك كان العمل قد قطع شوطاً بعيداً، وإن لم يفرغ منه بعد. (المؤلف).

في مكانها الآن، وكذلك الشبكية الخشبية الرائعة، التي حلت محل الستارة المزخرفة التي كانت تفصل القفص، أو قسم النساء، من سائر المسجد. في ١٩٣٥م حين منعت النساء عن مكانهن الذي كان من قبل مخصصاً لهن في المسجد، بامتداد الصف الشرقي من الأعمدة، كان عليهن أن يجدن وسيلة ما يصلين بها مع الناس، كما هو حالهن دائماً في مكة. ولعله من المفيد أن يتقصى المرء عن نشأة عزل النساء عن الرجال في المدينة، كما أنه مما يلفت النظر أنهن لايستطعن دخول مقبرة البقيع إلا ليدفن فيها. وهن أحياء ممنوعات من زيارة المقبرة، بينما هذه الزيارة للرجال جزء لايتجزأ من برنامج زيارة المدينة، بما في ذلك مقابر أولئك النسوة اللائي احتللن أماكن في التاريخ الإسلامي[١]. لذا، فإن ما كانت تفعله النساء هو الوقوف في مقبرة صغيرة خارج حدود البقيع، ولكنها مطلة عليه، وتوجيه السلام المأثور.

لقد كانت زيارة القبور -وبطبيعة الحال- أبرز الموضوعات الجدلية في بداية الحكم السعودي. لذا كان رجال الشرطة يقفون في الحرم والمقبرة لمنع أي إسراف في مظاهر الشعور أمام مقابر الأعلام. ولقد كان لهدم السعوديين للقباب في عامي ١٩٢٥م و ١٩٣٥م، أثر نفسي لم يكن متوقعاً أبداً[٢]. إن نسبة قبور العظام لأصحابها - ربما نحو عشرة أو أكثر - معروفة لدى المرشدين. ولكن القبور نفسها، عندما رأيتها في عام ١٩٣١م، بدت محزنة، لما كانت فيه من إهمال بحيث لا يتصور المرء أنها كانت ستجذب أحداً لزيارتها

(١) ليست زيارة البقيع لازمة لمن يزور المدينة المنورة، بل هي سنة كزيارة القبور في كل مكان. (المراجعون).

(٢) كان الدافع لهدم القباب هو الحيلولة دون تقديسها والتبرك بها مما يتنافى مع العقيدة الإسلامية (المراجعون).

لولا أن الزيارة كانت جزءاً من البرنامج. ولكن بعد ذلك بثلاث سنوات، يبدو أن زيارة وزير المالية، عبدالله السليمان، للمدينة قد أثمرت عن إصلاح حال القبور. ولما جئت في زيارتي الثانية كانت لكل القبور التاريخية، على أقل تقدير، حجارة في مواضع الرأس وحدود من حجارة البازلت والآن ليس في البقيع أي شيء مما قد يضل الجهال إلى تقديس القبور. لكن الأمر يختلف بطبيعة الحال فيما يتعلق بالقبور القليلة المشهورة التي بالحرم نفسه، حيث تقتصر مهام أمناء المرافق الدينية، في كل الأوقات وبخاصة وقت الحج، على حث الزوار على التحرك باستمرار لمنع أية مظاهر مفرط فيها أمام الشبك الحديدي الضخم الذي يخفي وراءه قبر الرسول نفسه وقبري خليفتيه الأولين. ولعل أهم قبرين من الناحية التاريخية في البقيع هما قبرا الخليفة عثمان، الذي قتل وهو على باب داره ينظر إلى المسجد من ناحية الشرق، والإمام مالك، أحد الأئمة الأربعة الكبار لأهل السنة. لكن هناك قبور يذكر أنها قبور زوجات الرسول التسع وبناته الثلاث اللاتي توفين في المدينة. وهناك قبر آخر، كانت تغطيه يوماً ما قبة رائعة، منسوب إلى فاطمة. ولكن يبدو مستبعداً أن تكون قد دفنت في البقيع أو في الحرم إلى جوار والدها. وليست عمات النبي مدفونات في البقيع، وإنما في الجبانة الصغيرة على الجانب الآخر من طريق نجد، المذكورة آنفاً كمكان لزيارة النساء. ويردد زوار البقيع وراء المرشد السلام المأثور لكل حالة من الحالات، ثم يقرأون الفاتحة.

٣ - الزيـــــارة

في صباح اليوم التالي لوصولي المدينة جاءني الشيخ أحمد الجنيني المرشد المتمكن الذي وضع نفسه في خدمتي طوال مدة إقامتي، وكأفأته بما استحقه لذلك، وذلك ليصحبني إلى المسجد للقيام بالعبادة المستحبة، وهي زيارة الرسول ﷺ. دخلنا المسجد من باب السلام في طريقنا في الرواق ذي الأعمدة الرائعة، الذي يكون القسم الجنوبي من البناء - نحو ثلث المنطقة المسورة - إلى الروضة. وهي مختلفة عن سائر المنطقة ذات الأعمدة، وتتميز عنها بأعمدتها المكسوة بالرخام، وتقوم فوق البقعة التي كان عليها بستان صغير من النخيل مجاور لبيت الرسول، من جهته الشرقية، كان يصلي فيه في بداية رسالته بالمدينة ثم تم تحويله إلى مسجد فيما بعد. وقد قطع النخيل واستخدمت جذوعه لتكون أعمدة لتحمل سقفه المتواضع من سعف النخيل لحماية المصلين من شمس الصيف ومطر الشتاء. ويمثل كل عمود جذع نخلة أصلي، ويشكل كامل منطقة مصلى الروضة جزءاً يسيراً من حجم المسجد الكبير الآن. وفي أيام الرسول ﷺ كان المسجد بلا شك كافياً لاستيعاب كافة المسلمين في المدينة آنذاك. ففيه أم المصلين، وبجواره أقام في البيت الذي دفن فيه حين توفي. وذاك هو سر قدسية تلك البقعة، وسر الممارسة الدائمة لدى زوار مسجد الرسول ﷺ بأداء صلاتهم الأولى فيها.

وبعد فراغنا من الصلاة القصيرة الخاصة بالزيارة، جلسنا لفترة من الزمن نتأمل في المشهد، ثم نهضنا لنخرج من الروضة بجوار محراب الرسول ﷺ، وبعده اتجهنا يساراً لنزور الرسول وصاحبيه المقدمين وخليفتيه وابنته

فاطمة[1]، كلاً وراء الآخر. وكل غرفة تقع وراء سياج من الحديد، يقف أمامه الزائر ويؤدي التحية المناسبة المأثورة مردداً وراء المرشد. ثم يدلف المرء إلى البقعة التي يروى أن الملك جبريل ظهر فيها للرسول ﷺ، وهي جدار به مشكاة خلف البيوت الثلاثة مباشرة ويواجهها. وهنا يدعو المرء بالبركة في دعاء مأثور يتعلق بزيارة الزائر. وعند الانتهاء منها يخرج المرء من باب النساء. وسمي بذلك -فيما يبدو- لأنه يواجه غرف زوجات النبي على الجانب الآخر من الزقاق الذي يحاذي الجانب الشرقي للمسجد. وهنا أيضاً بيت عثمان في الصف نفسه، وبالقرب منه حاجز بشبكية يؤدي إلى ما كان يوماً بستاناً - ربما بستان فاطمة، وإن لم يعد يشبه أي شيء من ذلك. وفي الطرف النائي من هذا المكان المغلق، تقع المكتبة المشهورة لشيخ الإسلام عارف حكمت[2]، وهي مستودع لمئات عديدة من المخطوطات النادرة، الفريدة التي لاتقدر بثمن.

وهذه المكتبة، التي أهم ما يميزها حجرة للقراءة، دائرية، غاية في الروعة، بها تلك الكتب النادرة مكومة في أكوام، لا قائمة في أرفف، لها أمين، عالم كبير السن، ذو جاذبية، اسمه الشيخ إبراهيم بن أحمد حمدي زاده الخربوطي، من أصل أناضولي، كان جده قد استقر هنا في ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م). وعرض عليّ بعض كنوزه. وإن حسرتي الوحيدة هي، أنه خلال زيارتيّ الاثنتين للمدينة، لم يسمح لي ضيق الوقت والالتزامات الأخرى بالاستفادة من المكتبة بالقدر الذي كنت أتمناه. فمن درر المجموعة ما يأتي :

---

(١) الواقع أن قبر فاطمة -رضي الله عنها- ليس كما ذكر المؤلف، ذكر ابن حجر عن الواقدي قال: قلت لعبد الرحمن بن أبي الموالي: إن الناس يقولون: إن قبر فاطمة بالبقيع. فقال: ما دفنت إلا في زاوية في دار عقيل، وبين قبرها وبين الطريق سبعة أذرع. ابن حجر. الإصابة: ج٨، ص٦٠. (المراجعون)

(٢) أودعت مكتبة عارف حكمت مع مجموعة المكتبات الوقفية بجوار الحرم النبوي في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة. (المراجعون).

(أ) نسخة كاملة سالمة مؤرخة بعام ٣٩٥هـ (١٠٠٥م)، لمؤلف عنوانه كتاب «الأوائل» للإمام هلال بن حسن العسكري[١]. وكان الشيخ إبراهيم نفسه قد نسخ نسخة من هذا المخطوط في ١٩٣٠م، لإمام السنوسية الراحل، السيد أحمد خلال إقامة الأخير في المدينة لاجئاً من ليبيا. وليست هناك نسخة أخرى معلومة لهذا العمل.

(ب) نسخة مؤرخة بعام ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) لكتاب «التشبيهات» لأبي إسحاق البغدادي.

(ج) نسخة غير مؤرخة لعمل جغرافي اسمه «ذكر المسافات وصور الأقاليم» صنفه في ٣٠٩هـ (٩٢١م) أحمد بن سهل البلخي، كثمرة لرحلاته الشرقية.

(د) نسخة قديمة غير مؤرخة (يعتقد أنها من القرن الرابع أو الخامس الهجري) من طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي - وفيما يبدو، هي النسخة الوحيدة المعروفة لهذا المؤلف.

(هـ) مجلد واحد به كل صحيح البخاري (أحاديث الرسول ﷺ)، بخط جميل مؤرخ بعام ١١٦٧هـ (١٧٥٣م).

(و) مخطوط مؤرخ بعام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) لإحياء علوم الدين للغزالي، بخط كاتب اسمه محمد آل مخلص الذهني.

وليست هذه سوى قلة من روائع هذه المكتبة عرضها علي الشيخ إبراهيم عرضاً يكاد يكون عفويّاً. ولقد رغبت في إعطاء هذه التفاصيل عساها تقع في عين عالم ما كفء يدرك قيمتها. أما الشيخ ابراهيم نفسه فإنه عكف من تلقاء نفسه

(١) الصواب أنه: أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري. (المراجعون).

على دراسة الأبجديات. لقد أراني في ١٩٣٥م، حين زرته في بيته في الشارع المعروف بالساحة، مجموعة من المقالات في مخطوط ضخم، عن النظم المختلفة للكتابة التي استطاع جمعها خلال استكشافاته. لقد كان لأبجديتي آدم وشيث الصدارة بينها جميعاً لأسباب تسلسلية تاريخية ظاهرة. وكم وددت قضاء بعض الوقت في فحص هذا العمل بمزيد من التفصيل، ولكن خلوتنا أفسدتها زيارات الزائرين، مما صرف الحديث إلى مناجم الذهب. لقد كان الزائران الحديثان هما السيد حسن عمران، وهو رجل ذو أفكار مستنيرة، يعيش في بيت ريفي ساحر على سفوح الحرات الملاصقة للطرف الغربي لورشة محطة السكة الحديدية، وأحمد فخري، الموظف في وظيفة إدارية من قبل السيد توتشل ، من نقابة التعدين العربية السعودية المحدودة. وكان الأخير قد عاد لتوه إلى المدينة بصحبة فان دي بول (مسلم هولندي معروف جداً، يعيش في الحجاز لفترات متقطعة من ١٩١٣م، وكان إلى عهد قريب رئيساً لشركة تحمل اسمه، في جدة) من رحلة لتخطيط طريق يؤدي إلى مهد الذهب، وهو منجم قديم اكتشفه حديثاً تويتشل (نحو منتصف الطريق بين المدينة وعشيرة. والطريق الجديد، كما حدده السيد فان دي بول، يترك طريق جدة - المدينة الرئيس في وادي بير درويش، ويلف لفة واسعة عن طريق محطة الحفيرة على خط سكة حديد الحجاز وبئر أبا الدود في وادي أم سلمة، ليلتقي بطريق المدينة - حائل مرة ثانية شرق مشهد بقليل - وهي النقطة التي يتمكن فيها الحجاج القادمون من ذلك الطريق من مشاهدة القبة الخضراء وأعالي مسجد الرسول ﷺ.

لقد كان فان دي بول آنذاك (فبراير ١٩٣٥م) مستأجراً لبيت جميل به حديقة في الجزء الضيق من وسط المدينة نفسها، ما بين البوابتين. لقد كان وقفاً معروفاً باسم السلطنة العثمانية كان قد أوقف للأبد (مع صف من البيوت تلامس طرفه

الشرقي) لمصلحة سراري سلطان تركيا الحالي. فهنا كان فان دي بول يسكن بطريقة عربية جميلة مقابل إيجار سنوي قدره ١٠ جنيهات إسترلينية يصرف مثلها في العناية بحديقته، ومعه خدمه وكمية هائلة من أباريق القهوة معروضة في بيته الصيفي بجوار جدول ماء يخرج من البئر، و قد رأيت فيه عدداً لا يحصى من الضفادع. لقد كان لتوه قد زار مهد الذهب ومنجماً آخر اسمه معدن العقيق، ووصفهما بأنهما كانا قد هجرا لامتلائهما بالماء ! وليس هناك أي ماء بأي من الموضعين الآن، ولكن المنطقة المجاورة لهما بها آبار الجريسية، ومنية وريعان. إن الترخيص الذي كان قد أعطي لنقابة التعدين العربية السعودية المحدودة كان قد وقع عليه في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٣٤م، وشمل منطقة على حدود الحجاز - طولها نحو ٨٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، وعرضها نحو ١٠٠ ميل في المتوسط. وقد استثنيت أرض الحرمين من هذا الترخيص. ولعله من السابق لأوانه[1] الحديث عن اكتشاف " كنوز الملك سليمان " مرة ثانية، ولكن الذهب كان معروفاً كمصدر من مصادر ثروة الجزيرة العربية منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ولربما كان المرء قد استغرب لو أن كل ما خزنته الطبيعة في جوف صخور الصحراء منذ عهود بعيدة كانت قد أفنته الجزية التي قدمتها قبائلها للبابليين، أو عمليات الملك سليمان الوهمية، أو أعمال الخلفاء الأوائل بعد ذلك.

وثمة صديق آخر، يقيم في المدينة منذ ١٩٣١م، ويسكن بيتاً بحديقة نخيل، هو الدكتور محمد حسين، الضابط الصحي الهندي المتقاعد، الذي كان قد قدم إلى جدة لأول مرة كطبيب للقنصلية ونائباً للقنصل في ١٨٩٥م، وكان من حين

(١) إن استغلال مهد الذهب لا يزال مستمراً بنجاح ولسنوات، وذلك ما شاهدته حين زرته في ١٩٣٨م. (المؤلف).

لآخر وحتى تقاعده يقوم بأعمال القنصل البريطاني في غياب القناصلة في إجازاتهم. وفي الوقت نفسه الذي كان قد وصل فيه كانت جدة في أزمة نجمت عن مقتل سابقه (نائب القنصل الهندي) والقنصل الروسي بأيدي بدو بينما كانا وقناصلة آخرين يستمتعون بالهواء الطلق على السلسلة المطلة على البحيرة الصغيرة المجاورة لبوابة المدينة. فهذا الطبيب الذي يعد كنزاً للمعلومات منذ أيام الشريف عون وخلفائه، قد استقر بالمدينة بعد تقاعده من الخدمة مباشرة، ولا يزال يعالج المرضى من الجيران وزوار مسجد الرسول ﷺ صدقة منه بلا مقابل إضافة إلى تحمله نفقات كبيرة. لقد أصبح مؤسسة مشهورة جداً في المدينة، ولا يسعده شيء قدر جلوسه مع زواره يحدثهم عن تجاربه المتنوعة. لقد كان ذا عين فاحصة ناقدة ولسان لاذع غير نمام، وربما كان ينسى دائماً أن المستوى العالي من الأداء الإداري الذي كان قد ألفه لايتوقعه المرء في بلاد كانت قد ألفت نظام الحكم التركي لقرون - من سوء الإدارة والفساد والفوضى، يشرق فيها أحياناً بعض الأفذاذ من الحكام.

وربما ليس هناك من الناس من يعرف نظام الإدارة التركية أكثر من يحيى بك، الرئيس الحالي للبريد والبرق بالمدينة. فهو غير آبه بتغير الأذواق، لايزال يستخدم سيارة فورد قديمة، (موديل T) تحمل الرقم ٤٧٢٩٠٩٨ . فهي آخر ما تبقى من ذلك النوع في الجزيرة العربية بعد أن رفضت الحكومة في ١٩٢٩م أو ١٩٣٠م ترخيص ذلك النوع من السيارات لنقل الحجاج. لقد كان يحيى قاصّاً راسخ القدم له معين لاينضب من القصص يأتي بها بأطراف أنامله. لقد كنا يوماً نتحدث عن السجاد وننعي فساد أذواق الناس في هذه الأشياء هذه الأيام. فذكّره الحديث قصة كان عليه التحري فيها آنذاك. فمنذ شهور أو أسابيع

مضت كان شخص ما قد أرسل طرداً مسجلاً من المدينة إلى استانبول وبه من العملة الورقية التركية ما يعادل ٥٠ جنيهاً إسترلينيّاً. ومؤخراً أعيد الطرد سالماً لأن المرسل إليه كان قد مات قبل وصول الطرد إليه. فأرسل إلى المرُسِل ليأتي ليستلم رسالته. وحينئذ اكتشف أن الطرد، وإن كان سالماً في ظاهره، فإنه كان خالياً من الأوراق المالية. وكان الختم سالماً، مما أذهل يحيى وحيَّره. ولكن مثل ذلك لم يحر ذلك الحاكم التركي في الأيام الخوالي حين جاءه شخص ما يشكو من أن صرة من الذهب كانت قد أرسلت إليه بالبريد المسجل - وهو ما لايزال يحدث في الجزيرة العربية - اتضح أنها لاتحوي سوى قطع نقدية نحاسية. وفشل الفحص الدقيق للصرة في اكتشاف أي أثر لتلاعب في أختامها، أو خياطها أو نسيجها. وطلب من الشاكي العودة بعد يوم أو يومين. ولكن في تلك الليلة شاء حظ الحاكم العاثر أن يتلف أغلى سجاداته عنده؛ وذلك أنه، وبطريقة ما أو أخرى، شقها بآلة حادة، وانتشر الخبر في المدينة صباح اليوم التالي. وتوافد الناس لتعزية حاكمهم. ولكن أحدهم، كان أكثرهم واقعية، فجاء بأحذق النساجين في المدينة، مشهود له بمهارته الفائقة في رفو السجاد، بحيث لايرى لرفوه أثر. فأعطاه الباشا سجادته متظاهراً بشك في قدرته على رفوها. وبعد حين من الزمن جاء الرجل بها، وكانت كأن لم يصبها سوء، فسر الجميع للنهاية السعيدة للمأساة. قال له الباشا: "والآن قل لي"، من جاءك بصرة النقود تلك لرفوها ذلك اليوم؟". فافتضح أمر السارق، وأعيدت النقود الذهبية لصاحبها الشرعي.

٤ - الحياة في المدينة

بجوار الحرم، ومن جانبه الغربي، قريباً من باب السلام، ساحة سوق مبلطة، تعرف بالعينية، وذلك لمجاورتها لمقر اللجنة المكلفة بالإشراف على تزويد المدينة بالماء، والتي أهم مصادرها قناة العين الزرقاء الجوفية، التي تصل العين الغنية في منطقة قبا بالمدينة وتنتهي خارج باب دمشق[١] بقليل، عند أطلال مسجد زكي الدين[٢]. وكان هناك في السابق بستان نخيل واسع، يمتد من ميدان العينية الى بوابة بذلك الاسم، مما أصبح متنزهاً جذاباً لتمضية ساعات فراغ السكان. ولكن الحاجة لمكان تتوسع فيه المتاجر، أدت بعد وقت قصير إلى تحويل البستان إلى شارع تجاري واسع بدكاكين تتقدمها شُرُفَات مسقوفة أو أروقة واسعة على جانبيه. إن اختفاء البوابة وقطاع من السور إلى جانبيها لم يسمح ببلوغ الحرم من منطقة المناخة فحسب، وإنما فسح المجال أمام المشهد الرائع للقبة الخضراء والمئذنة المصاحبة لها من بعد. وبالقرب من طرف الشارع المجاور للسور تقع المكاتب الجديدة للأخوة أبناء الخريجي، الذين كان أبوهم المسن حياً في ١٩٣٥م - وإن كان شيخاً هرماً آنذاك - والذين أثروا كثيراً بنشاطهم التجاري والتوكيلات الحكومية منذ مجيء الحكومة السعودية. لقد كنت ذكرت من قبل الدار الجديدة التي كانوا على وشك الانتهاء منها بجوار بيت الحكومة في وقت زيارتي الثانية. وكان أحد هؤلاء الإخوة قد استضافني في رابغ عند نزولي هناك في ١٩٢٥م، حين كانوا يؤدون دوراً مهماً في استمرار المؤن للجيش السعودي المهاجم آنذاك.

---

(١) كذا بالأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).

(٢) ربما أن المقصود هو مسجد أو ضريح محمد ذي النفس الزكية. (المراجعون).

ومن ميدان العينية نفسه يؤدي شارع الساحة العريض في اتجاه شمالي غربي إلى باب دمشق[1]. وفيها معظم أجمل دور المدينة، وإن كان أبناء الخريجي قد جعلوا دارهم الخاصة - التي ظاهرها كالسجن وباطنها كالقصر - في الحي الشرقي، قرب باب الحمّام. لقد كان لصديقي أمين المكتبة بيت جميل في الساحة، بينما كانت الدار الأكبر والقريبة منه قد خصصت لإقامة بيجام بوبال في فبراير، ١٩٣٥م. وكذلك كان نائب بهاوالبور متوقعاً حضوره في هذا الوقت ولتتم استضافته في بيت السيد عمران - ولكني لا أعلم يقيناً في أية منطقة سيكون، وربما في الفيلا خارج ساحة السكة الحديد. لقد كان المسكن الأول ملكاً لشخص اسمه إبراهيم هاشم، وهو قريب بالمصاهرة لمستضيفي آنذاك، أسرة السيد حمزة غوث، الذين كان لهم منزل مواجه لبيت الحكومة على الضفة اليمنى من أبي جيدة. وكان السيد حمزة نفسه آنذاك في مهمة في العراق ذات علاقة بإنشاء طريق للسيارات عبر الصحراء من النجف، وبطريق حائل إلى المدينة. وقابلته بعد انتهاء مهمته في معسكر الملك في الخفس قرب الرياض، حين عاد لوظيفته العادية من بين موظفي الملك. وكان في وقت ما خلال الحرب في خدمة سعود بن رشيد في حائل، وناب عنه مرات عدة في بعثات رسمية إلى الرئاسة التركية في دمشق. وفي إحدى هذه المرات، وهو عائد إلى حائل بقافلة من السلاح والمال والمؤن، يبدو أنه احتك بجنود لورنس الذين أعلنوا قتله تخميناً منهم لا يقيناً، وغنم القافلة.

وبعد ذلك بفترة من الزمن التقيت به لأول مرة في بغداد، حيث كان قد جاء نيابة عن عبدالله بن متعب، خليفة سعود، لتستقبله جيرترود بيل بذراعين

(١) كذا بالأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).

ممدودتين. ولكن، بعد فوات الأوان! فإن مصير حائل قد اتضح. ثم رأيت حمزة في صحبة ابن سعود بعد ذلك - وأظن ذلك كان في ١٩٣٠م، في الطائف. على أننا منذ ذلك الوقت لم نكن صديقين حميمين. لكن ابنيه، عبد القادر وناصر، كانا هما اللذين استضافاني خلال إقامتي القصيرة في المدينة في ١٩٣٥م. وكان ناصر آنذاك يوشك أن يسافر إلى إيطاليا ليتعلم الطيران، هو وبضعة شبان آخرين من الجزيرة العربية. ولكنه وأربعة أو خمسة منهم أعيدوا من مصوّع، حيث كانت الجماعة كلها قد أخضعت لبعض الاختبارات الأولية لمعرفة مدى كفاءتهم في مجالات الطيران. وهو الآن موظف لدى المنقبين عن الذهب. أما أخوه فله تجارة صغيرة في سوق الصرافة المحلية، إضافة إلى متجر صغير خارج باب المصري.

وكان قدر سكان المدينة أن يعانوا من تدهور حالة مدينتهم. إن معاناتهم أوشكت أن تمتد لجيل. وهناك أدلة كافية على أنهم انطووا على نفوسهم وشدوا أحزمتهم لمواجهة أوقات الشدة. لكن في هؤلاء المواطنين تهذباً، كالذي في الأمراء - التجار في عنيزة والرس، ومهما يجبرهم عبوس الزمان على العزوف عن الرفاهيات المستوردة، فإن بساتين المدينة الغنية تقدم ما يكفي والكثير الذي يفيض عن الحاجة من ضروريات الحياة، لا للأغنياء فحسب، وإنما للحشود الفقيرة، التي تشاركهم شرف مجاورة الرسول ﷺ. لقد كانت أياماً مجيدة تلك حين كان خط السكة الحديدية ينقل الوفير من ثمار الواحة إلى الشمال القاصي وحجاج الشمال، ويعود محملاً بحبوب حوران، وأقمشة مانشستر التي تباع بالقطعة.

ستعود مثل هذه الأيام يوماً. وإلى أن يأتي ذلك الحين، فإن المرء بمقدوره

الآن أن يشتري سطلاً كبيراً من الفاكهة الشهية وخضراوات بالجملة ببضع بنسات (إنجليزية). لقد كانت الحركة الزراعية نشطة في المدينة بصورة مذهلة في السابق، لقد كانت معظم الممتلكات الجيدة تسقى من الماء الوفير من الآبار الكثيرة بمضخات آلية، توقد بالحطب الرخيص الذي يجلب من المناطق المجاورة بأجر النقل فقط. لقد قللت الضرائب العالية على الكيروسين المستورد من استخدم الآلات التي تعمل بالزيت - وإنها لمأساة صغيرة في حد ذاتها، لن يظهر تأثيرها إلا فيما بعد. إن استخدام حطب الوقود، كاستهلاك حليب الماعز، يعني القضاء على الثروة النباتية في الأمد البعيد؛ والجزيرة العربية، دون سائر البلدان، بمطرها المتفرق والخفيف وسطح تربتها الرقيق، لاتقدر على مثل هذا الإسراف.

وفي هذه الأثناء تظل حياة المدينة تلف حول حدائقها وبساتين نخلها، لايجد سكانها سعادة أكثر من تجمعهم معاً، في جماعات صغيرة من الأصدقاء مع زائر من الخارج يأتيهم من حين لآخر، في رحلة خلوية في واحدة أو أخرى من حدائقهم الكثيرة. وبعض هذه الحدائق يجده المرء داخل السور، مما يعني أن أصحابها يقيمون بصفة دائمة في دور واسعة، في محيط من النخيل والنباتات الأخرى، بديوان ذي أعمدة، أو قاعة استقبال منعكسة في حوض ضخم مبني من الحجارة، يجري فيه ماء بئر ليروي أشجار الفاكهة، أو النخيل أو منتجات ثانوية، مثل الفصفصة، التي لها سوق رائجة دائماً، لكثرة وفود البدو بجمالهم. وخارج الأسوار شريط غزير من النخيل يلف المدينة القديمة من باب قبا في الجنوب إلى باب دمشق[1] في الشمال. وبكثير من هذه الحدائق بيوت

(١) كذا في الأصل، يقصد «الشامي». (المترجم).

ريفية كالتي داخل الأسوار ووصفناها سابقاً. ولقد قطع عدد كبير من هذه الحدائق مؤخراً لتحل محلها ضاحية واسعة تبدأ من جوار باب المجيدي إلى باب بصرى بمحاذاة الطريقين اللذين يؤدي الأول منهما شمالاً إلى قبر سيد الشهداء حمزة والثاني منهما شمال شرق إلى نجد. ولقد كانت هذه الضاحية في واقع الأمر تمثل قطاعاً رابعاً من منطقة المدينة، وفي عهد الملك حسين كان يحميها من الأخطار الخارجية سور جديد يمتد من الطرف الشمالي لسور محطة اللاسلكي (نحو ميل شمال باب دمشق)[1] إلى نقطة ما قرب البقيع. وينفذ الطريقان المذكوران آنفاً من السور الخارجي ببوابتين متواضعتين هما باب حمزة وباب التّمّار (أو باب الصدقة)، بهذا الترتيب. وداخل هذا السور مساحة واسعة من أرض سبخة عليها آثار زراعة لم تنجح تماماً، وإن كانت أشجار النخيل بها تبدو جيدة. كما أن الدور المبنية فيها كانت ضخمة المخططات - خانات للحجاج مبنية بناءً جيداً ومساكن لأولئك الذين يجدون المدينة نفسها مزدحمةً ازدحاماً لا مبرر له.

ولسوء الحظ فإن هبوط حركة الحج بدأ يزيد من حدة البؤس الذي كانت قد بدأته الحرب العالمية، وزاد من حدته ما ترتب على ذلك من صرف للنظر عن أية محاولات لإحياء خط سكة حديد الحجاز. لذا فإن الدور الضخمة الفخمة في حي المجيدي كانت في تدهور مستمر وهي تقف خاوية مهملة، فهي تبعة بلا دخل لأصحابها، وعتاب للقوتين العظميين اللتين اقتسمتا غنائم خط السكة الحديد بينهما وتركتا الحجاز يواجه مصيره.

إن السيارة الخاصة تكاد تكون ترفاً غير معروف في المدينة. وللحاكم أسطوله الخاص من السيارات، ولذا فإنه أصلح الطرق المؤدية جنوباً إلى قبا

(١) كذا في الأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).

وشمالاً إلى قبر سيد الشهداء حمزة، ووضع عليها علاماتها. وكانت للسيد يحيى -وكما سبق ذكره- سيارته الفورد من النوع القديم، بينما كان لآل خريجي وناصر بن عقيل، أمين الخزينة المحلية، سياراتهم أيضاً. وفي موسم الحج - بطبيعة الحال- تتوافر سيارات كثيرة للرحلات، حين تكون في هذا المكان منتظرة إعادة من جاءت به من الحجاج إلى مكة وجدة. أما سكان المدينة العاديون، بل وبعض الموسرين، فقد درجوا على نزهات متكررة إلى بساتين النخيل الخارجية أو الأماكن التي تستحق الزيارة، فيركبون لها الحمير، وفي أحايين قليلة، الخيل والجمال. إن الحالة العامة للهبوط الاقتصادي في السنوات الأخيرة لم تشجعهم ليتخلوا عن خيول الأيام الخوالي من أجل المركبات الجديدة ذوات الناب. إن الرحلات إلى الريف تحتاج إلى إعداد جاد. لذا فإنها عادة مقصورة على فصول معينة، حين تنتقل أسرة ما إلى بستان نخيل بعيد تملكه، أو تستأجره من وكيل أو من صاحبه المقيم في مكان ناء، وتقيم فيه شهراً أو شهرين. وأثناء ذلك الوقت تكثر زيارة الناس غير المحظوظين لهم، الذين حبسهم العمل أو أي شيء آخر في المدينة، كما يقوم رب الأسرة أو أحد الذكور بزيارة المدينة لإنجاز بعض الأعمال، من حين لآخر ليوم أو يومين أو آخر الأسبوع. إن المناطق السكنية في مثل هذه الممتلكات النائية بسيطة ولكنها كافية، لكل فرع من العائلة قسمه الخاص، ولكن السمة الرئيسة المشتركة بينها هي شيء من طبيعة البيت الصيفي بجوار جدول للري أو حوض ضخم، يجلس بجواره الذكور من العائلة وضيوفهم يقطعون الوقت يتحدثون في السياسة والمشكلات الاقتصادية، يصلون في الأوقات المعلومة، وينامون وقت الظهيرة الحار، وربما في أحايين كثيرة، يستمتعون بسماع الموسيقى التي لا يستمعون إليها في الرحاب المقدسة.

٥ - واحة المدينة

لقد زرت عدداً من هذه الضياع، وقضيت ساعات ممتعة مع مضيفيّ المختلفين في مثل هذا النحو من تزجية الوقت. ويبدو أنهم يجدون متعة صادقة في اصطحاب ضيوفهم حول الحدائق، لزيارة الآبار وغرف الماكينات المجاورة لها، موضحين كيف أنهم محلياً نجحوا في تحويل ماكينات الزيت لتعمل بالغاز الناتج من حطب الوقود، بطريقة عشوائية، وباستخدام معوجة تقطير بادية الخطورة. وثمة سمة أخرى لاتقل إثارة عن ذلك هي أنهم بدلاً من استخدام كاتم للصوت، فإنهم يستغلون صوت عادم الماكينة، بأنهم أحياناً يضيفون إليه ما يجعله يصفر صفيراً معيناً، يتنبهون عن طريقه إلى أي عطل يلحق بالماكينة. لذا فإنهم ينامون ملء أجفانهم على ذلك الصوت الشارخ. ولقد عودتهم التجربة المستمرة أنه ليس هناك من شيء يقض مضجع النائم سوى الانقطاع المفاجئ لتلك الضوضاء الصادرة من الماكينة.

وليس هناك أي تنوع في نباتات حدائق النخيل تلك. وتمور المدينة بالطبع مشهورة في كل الشرق الإسلامي، لمزاياها الخاصة ولارتباطاتها الدينية معاً[١]. فالمشمش، والعنب، والخوخ وغيرها من الفواكه وفيرة في مواسمها، وكان بالإمكان تحسينها بالفلاحة الماهرة. وزهور البساتين العادية ليست كثيرة وإن بدأ الاتجاه مؤخراً نحو زراعة المزيد منها. فالورود والياسمين محبوبة جداً، وتزرع بكثرة لرائحتها، ونبات الحناء هو المفضل، يبلغ في ارتفاعه ارتفاع الشجر أحياناً، وهو مفيد أكثر من كونه للزينة. وربما كنت قد جئت في وقت سابق

(١) من فضائل تمر المدينة قول النبي ﷺ: (من تَصَبَّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر). رواه البخاري ومسلم. (والعجوة من تمر المدينة). (المراجعون).

لقدوم الطيور المهاجرة في زيارتي في ١٩٣٥م. أما الطيور المقيمة فليست كثيرة التنوع أو مما يثير اهتمام المرء. والبلبل، واسمه النّغري، من أكثر طيور المدينة، يسمع تغريده في كل الأوقات، وهو طائر القفص المفضل في الحجاز. ويمكن تدريبه على الغناء، وطائر كهذا، يمكنه تعلم الغناء، يدر ربحاً كبيراً في مكة وجدة. والمجبّية هذا موسمها، وهي مغنية أخرى ترى في البساتين. ولكن يقال إنها لاتعيش في الحبس. والوروار كثير أيضاً مثلما أنه جميل. ويضع صبيان المدينة الأفخاخ للقهد، وهو الحجل الجبلي، ويقال إنه كثير في التلال المجاورة. أما الطيور الأخرى، كالغراب، والحدأة، والنسر المصري، والعوسق، والقبّرة، وفصائل أخرى من آكلات القمح، فإنها معروفة بكثرة في هذه المنطقة. وفي وقت زيارتي في ١٩٣١م كانت المدينة في أعقاب غزو من الجراد، لكنه لم يكن شديد الضرر هذه المرة. وبهذه المناسبة، فإن كل منطقة المدينة، من قبا إلى جبل أحد، كمكة، منطقة حرام، ملاذ لكل المخلوقات المتوحشة. فلا صيد مباح فيها. وبالرغم من ذلك، فلا الطيور ولا الحيوانات كثيرة هناك بصورة واضحة. ومن الحيوانات المتوحشة، يقال إن الفهد موجود في المنطقة المجاورة لجبل البيضاء، وكذلك فإن الوعل غير قليل في الجبال المحيطة، بينما تكثر الأرانب الخجولة. لكني لم أر غزالاً فيما جاور الواحة مباشرة، وإن كنت رأيت غزالتين أليفتين تطوفان شوارع المدينة حين كنت فيها - يجلبها البدو من الصحراء، وهي مرغوبة جداً كحيوان أليف منزلي.

إن منطقة المدينة، وحسب التعريف الموروث لها، تمتد من اللابة[1] إلى الغابة. والأخيرة غابة كثيفة من الطرفاء في الطرف الشمالي القصي للواحة في

(١) اللابة: الحَرَّة. (المراجعون).

البطن الرملي الواسع لوادي العقيق، حيث يلف غرباً أسفل النتوء الأخير من جبل أحد ليلتقي بالقناة الكبرى، لوادي الحمض، الذي كان داوتي قد اكتشف منبعه في جبال الحرات في خيبر. ومن هذه النقطة تمتد الواحة جنوباً نحو عشرة أميال إلى خليج في الحرات الواقعة بقرب قبا، إلى الجنوب الشرقي منها. ويشكل هذا الخليج رأس مثلث متساوي الساقين، قاعدته واقعة بمحاذاة القاعدة الجنوبية لجبل أحد تقريباً، وعرضه نحو خمسة أميال. ووراء هذه القاعدة، فإن وادي العقيق، الآتي من الجنوب الغربي، ووادي شعب أبي جيدة، الآتي من الجنوب مخترقاً منطقة المدينة، ووادي قناة، الآتي من الشرق بمحاذاة أسفل جبل أحد، تكون جميعها بروزاً مثلثاً جهة الشمال عرضه نحو ثلاثة أميال. ويقع القطاعان الجنوبي والأوسط من الواحة حتى "الخندق" التاريخي في حوض يسده من الغرب والجنوب والشرق فيض من الحرات القديمة. وشمال الخندق يمتد القسم الأوسع من المنطقة من سلسلة الجَمَّاوات[1] ووادي العقيق من الغرب إلى امتداد شريط الحرات من الشرق بما يكاد يصل سفح جبل أحد. وتنتشر في هذه المنطقة مزارع متفرقة، ولكن الشريط الرئيس من بساتين النخيل الشمالية، التي تعرف جميعها باسم واحد هو العيون، يحاذي الضفة اليمنى لوادي قناة تحت طرف جبل أحد حتى ملتقى هذه القناة بوادي العقيق، ثم بعد ذلك يمتد شريط كثيف من النخيل على جانبي الوادي حتى منحناه غرباً. ومنذ عهود قديمة كانت الواحة مزدهرة بسلسلة من القنوات الجوفية، تغذيها عيون غطتها الحمم البركانية المتدفقة، إضافة إلى الآبار التي حفرت في كل من الحوض الجنوبي وأنهار الأودية.

(١) هي جبال الجَمَّاوات وهن ثلاثة: (جماء تضارع، وجماء أم خالد، وجماء العاقر- أو العاقل). (المراجعون).

وفي هذا المكان، تحت سفح جبل أحد بعينه، وفوق مجرى القناة، كانت المدينة القديمة لليهود، يثرب[1]. إن أطلال أول مستوطنة لليهود في المنطقة، وقد فصلها عن جبل أحد شريط كثيف من النخيل المزدهر - تتخللها البيوت الضخمة لأصحابها، المبنية من الحجارة - مدفونة الآن (ليس بعمق كبير) في الرمال والطين اللذين قذفت بهما سيول قرون طويلة، ويمكن متابعتها بسهولة على جانبي مجرى السيل لنحو ميل، أو شيء من هذا القبيل، إلى الغرب من قبر سيد الشهداء حمزة. والمنطقة التي تغطيها ليست واسعة.

أما أسوار المدينة وبيوتها، فقد استخدمها الناس خلال العصور كمحجر تجلب منه الحجارة للمباني التي تشيد من حين لآخر في المنطقة المجاورة. إن الحفريات التي قام بها البناءون كشفت عن الحجارة الأصلية هنا وهناك. وما عدا ذلك فليس هناك ما يعثر عليه على السطح، الذي تجولت فيه بلا طائل في مناسبات عدة. إن رحاءين مصنوعتين من حجر الحرات محفوظتان الآن بالمتحف البريطاني. ولقد رأيت في بيوت عدد من سكان المدينة بعض بقايا الأواني المنزلية قيل إنه قد عثر عليها في القرى التي سكنها اليهود. وذلك كل ما تبقى ليحدثنا عن الاستيطان اليهودي في هذه المنطقة، الذي ربما كان قد بدأ في بداية العصور الميلادية، حين كان هادريان قد أجلى بني إسرائيل عن فلسطين (١٣٦م). ولم يدم الاستيطان كثيراً بعد محمد ﷺ، الذي شهدت سنواته في المدينة طرد قبيلتين من اليهود - بني النضير وبني قينقاع - والقضاء على

(١) لم تكن يثرب القديمة سكناً خاصاً لليهود كما يزعم المؤلف وإنما كان اليهود جزءاً من سكانها، إلاّ أن غالب سكان يثرب كانوا من العرب الوثنيين وغيرهم، وتشير الروايات التاريخية إلى أن يثرب أسسها رجل من أحفاد نوح -عليه السلام- وروايات أخرى تذكر أن العماليق أسسوا يثرب. انظر: عبدالباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الجزء الأول، ص ص١٤-٤٠. (المراجعون).

الثالثة بني قريظة لغدرها وتواطئها مع العدو في غزوة الخندق. إن هذه القبيلة التي ظل اسمها وحدها باقياً في حرة قريظة[1]، يبدو أنها كانت تسكن الطرف الجنوبي للمنطقة، حيث ترى آثار قريتها في العوالي، قربان وقبا. ففي قربان أطم، وهو كومة من الحجارة أعلاها مسطح نوعاً ما، تصعب معرفة الغرض منه بالتحديد. إنه ليس عالياً العلو الكافي ليكون برج مراقبة، ويكاد يكون أصغر من أن يكون بناءً، وإن كان مغرياً للمرء أن يحسبه لا بناءً فحسب وإنما معبداً يهودياً محلياً.

وهناك ركام آخر مشابه له يقع إلى الشمال، في طرف الحرات، قريباً من مقبرة علي العريض ومسجده. فهذا لايزال يعرف باسم يهودي، مرحب، الذي ربما كان ذلك الشخص نفسه الذي سقط عندما هاجم المسلمون خيبر، التي كان قد أوى إليها بعض بني النضير بعد إجلائهم عن المدينة. والمسجد الحالي تحيط به منطقة واسعة من الأرض الصالحة للزراعة، ويبدو أنها كانت بها آبار أكثر بكثير من العدد القليل الموجود الآن. ولا يبدو لي أن هذه المنطقة كانت مركز بني النضير الذي كان لهم ممثلون مقيمون في المدينة نفسها. ويبدو أن يثرب كانت موطناً للقبيلة الثالثة، بني قينقاع، الذين كانوا أقل حرصاً على الزراعة منهم على الحدادة، التي كانت لهم فيها شهرة. لقد كانوا ذوي علاقة بالعرب الخزرج، الذين كانوا يملكون البساتين الغنية والحقول في القطاع الشمالي من المنطقة. ويقال إنهم أعانوا جيش المسلمين في معركة أحد[2]. لقد

(١) حرة بني قريظة وتسمى حرة واقم، تقع شرقي المدينة المنورة. (المراجعون).

(٢) المشهور والراجح في كتب السيرة أن الرسول ﷺ أجلى بنو قينقاع من المدينة بعد معركة بدر، وعلى هذا فلم يكونوا موجودين في المدينة عندما وقعت معركة أحد. وهناك رواية تذكر أنهم كانوا موجودين وأنهم خرجوا مع عبدالله بن أُبيّ بن سلول، لكن الرسول ﷺ عندما علم بخروجهم أعادهم وقال لا نستعين بالمشركين على المشركين وعلى كلا الروايتين لم يحصل منهم مشاركة أو إعانة للمسلمين في معركة أحد (المراجعون).

كانوا هم أول من أجلوا عن المدينة من اليهود، فنجوا بذلك من مصير أسوأ انتظر إخوتهم الذين كانوا في الجنوب، والذين كان شأنهم شأن بني النضير، في ولاية الأوس وحمايتهم. لذا، فبينما هاجر بعض بني النضير إلى خيبر ليجربوا عناية الله مرة ثانية بنتائج مهلكة[1]، فإن بني قينقاع نفضوا تراب الجزيرة العربية عن أرجلهم نهائياً وعادوا من حيث كانوا قد أتوا أصلاً - سوريا وفلسطين. لقد كانت القرون الثلاثة عشر كافية لإزالة كل آثار سطحية للاستيطان اليهودي؛ وعرب اليوم لايشجعون دراسة الحقبة اليهودية في تاريخ المدينة. وسيمضي وقت طويل قبل أن يبدأ الجاروف في الكشف عن تلك الأسرار. وقل أن يدرك الزائر لقبر حمزة أنه على مرمى حجر تقريباً من العاصمة القديمة لليهود[2].

لقد كانت موقعة أحد في ٦٢٥م، بعد ثلاث سنوات من ترك الرسول ﷺ لمكة، وعلى مرأى من حصون اليهود في واد على شكل إسفين (وتد) يهبط من جبل ضيق في قلب الجبال إلى وادي قناة. وكانت قريش الغازية قد تبعت وادي العقيق منحدرة إلى السهل حول يثرب، بينما كان جيش النبي ﷺ -وتصدياً لتهديدهم- قد سار من المدينة ليتخذ موقعاً في وادي قناة بحيث أصبحت ميمنته مرابطة على الأطراف الدنيا من جبل أحد. وهناك مسجدان، يعرفان باسمي مسجد الدرع والمستراح، في وسط الطريق ما بين المدينة وميدان المعركة يخلدان المكانين اللذين كان الرسول ﷺ قد توقف فيهما ليلبس درعه

(١) الصواب أن الرسول ﷺ أجلى بني النضير بعد أن تآمروا على المسلمين، بل إنهم حاولوا اغتيال الرسول ﷺ عندما طلب منهم المشاركة بدفع دية قتيلين. (المراجعون).

(٢) سبق التعليق على ذلك حيث بينا أن اليهود سكنوا في هذه المنطقة ولم يؤسسوها، ولم يكونوا أصلاً فيها. (المراجعون).

أولاً وليستريح. وبعد هذين يدخل المرء بستان نخيل القرية، التي نمت بمحاذاة الضفة اليسرى للوادي حول البقعة المسماة قبة المصرع، حيث قتل حمزة ودفن بعد المعركة. أما قبره الحالي، الذي كان قد نقله إليه العباسيون، فإنه على الجانب الآخر من مجرى السيل، وكانت تغطيه قبة حتى هدمها السعوديون في ١٩٢٥م[١]. وبقي القبر وحده ليكون معلماً على البقعة، بناءً بسيطاً من حجر الجرانيت، نحو ثلاثة أقدام في ارتفاعه، مقبب السطح بشيء يسير.

وبالقرب منه سوران من الحجارة يحتويان على رفات شهداء المعركة الآخرين، وقبر واحد لعقيد بن أبي نماس[٢]، وهو من الأشراف، كان والي المدينة أيام العباسيين، وخص تخليد ذكرى حمزة ومعركة أحد باهتمام خاص. وقريباً من هذا الموضع يقوم مسجد الثنية وحوضها، اللذان يخلدان المكان الذي كان قد جرح فيه الرسول ﷺ في وجهه، ففقد إحدى ثنيتيه. إن الحوض يحظى بتعظيم خاص، وهو مليء دائماً بماء صاف يأتيه من عين، إلى جانبها حمام للزوار من الحجاج. وهناك حوض آخر قريب أيضاً، كانت تغذيه قناة مسقوفة في الماضي، جفت الآن. وعند صعود الممر الضيق في الجبل يجد المرء موقعاً أو موقعين متعلقين بالمعركة. أحدهما مسجد - مسجد التفسح أو الغسل - حيث غسلت جروح الرسول ﷺ وهو ينسحب إلى المكان العلوي الضيق من الممر الجبلي، والآخر مسجد صغير اسمه الطواقي، الذي يخلد ذكرى المكان الذي ضاعت فيه عمامة الرسول الملفوفة حول خوذته. والثالث كهف طبيعي، نحو ١٠٠ قدم على الصفحة المنحدرة من التل، على الجانب الأيمن (والمرء ينظر إلى مصدر الماء) كان قد أوى إليه الرسول ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى زال خطر

(١) هدمت القبة لأنها كانت مدعاة للتقديس ومن البدع التي نهى عنها الشرع. (المراجعون).
(٢) لم نتمكن من التعرف على هذا العلم بوصفه أحد ولاة المدينة في العصر العباسي. (المراجعون).

أي هجوم آخر من قريش بعد انسحابها. ولقد حفرت درجات ليرقى بها الحجاج زوار الكهف، وفتحته نحو قدمين، وارتفاعه نحو ستة أو سبعة أقدام. وبهذه المناسبة، فإن جنديين يقفان باستمرار بجوار قبر حمزة لمنع أي عمل مفرط فيه غير لائق بالزيارة. فهذه هي العلامات الظاهرة لموقعة أحد، التي أثمرت عن نتيجة غريبة، هي انسحاب المنتصرين، دون أية محاولة منهم لمواصلة جهدهم وتحقيق انتصارهم الشامل[1].

(١) أحداث معركة أحد في السنة الثالثة من الهجرة معروفة في كتب السيرة، حيث انتصر المسلمون في بدايتها، لكن نزول الرماة، الذين طلب منهم الرسول ﷺ عدم ترك مواقعهم حتى لو انتصر المسلمون، أدى إلى هزيمة المسلمين بعد أن أخذ المشركون مكانهم فوق الجبل. (المراجعون).

٦ - جبل أحـــد

إن أحداً -وحسب ما ورد في الأثر- أحد جبال الجنة السبعة[١] . ومن البقية الأخرى، أربعة في منطقة مكة، هي أبو قبيس، وثور، والنور والرحمة (في سهل عرفات). والسادس رضوى، الذي يطل بنحو ٦٠٠٠ قدم، أو ربما أكثر من ذلك، على ينبع، والسابع ورقان، وهو جبل حقيقي أيضاً غير بعيد، إلى الجنوب الغربي من المدينة، في الطريق إلى رابغ. إن أنهار الحمم البركانية، القديمة والحالية، التي تراكمت في فترات عدة حتى وصلت طرف حوض المدينة، يبدو أن مصدرها كان مكاناً ما قريباً من الأخير هذا، ولكني لم تتح لي الفرصة لفحص هذه البقعة من الأرض بنفسي. إن أجمل منظر عام، على الإطلاق للمدينة يمكن أن يراه المرء هو ذلك الذي يتحقق من قمة جبل أحد، التي يقوم فوقها بناء مربع من الحجارة يطلى بالأبيض أحياناً اسمه قبة هارون.

إن هذه البقعة تشرف على الأرض تحتها من ارتفاع نحو ١٥٠٠ قدم، وبذلك تكون ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر تقريباً. إن الأشخاص الأكثر طاقة في المدينة عليهم أحياناً مجابهة المهمة الصعبة، لبلوغ قمة الجبل. ولكن قبر هارون ليس في برنامج زيارة الحاج. لذا فإنه لا تكثر حوله أية زيارات على أي حال هذه الأيام. وأعتقد أنه يحق لي أن أدعي أني أنا الأوربي الوحيد الذي وصل (أو حاول أن يصل) القمة. ففي وقت زيارتي في يونيو، ١٩٣١م، أسعدني الحظ برفقة رجل كان أقرب إلى السبعين منه إلى الستين، كان قد طلع الجبل قبل نصف قرن تقريباً، ولم يفقد شيئاً من طاقته البدنية خلال كل هذه الفترة

(١) يشير المؤلف إلى حديث موضوع. انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة للدكتور صالح الرفاعي، ص ص٥٧٢-٥٧٩. ومن فضائل جبل أُحد الثابتة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا جبل يحبنا ونحبه) رواه البخاري ومسلم. (المراجعون).

بعد، اسمه محمد السقاف، الذي كان قد عاد مؤخراً إلى الحجاز بعد أربعين سنة من الإقامة في القسطنطينية وغيرها في الخارج. وكان معنا خادم يحمل قربة ماء لسقينا في القمة فيما لو كان الحوض الحجري الصغير الموجود في القمة خالياً من الماء. وقد كان كذلك فعلاً.

وكنا نحن الثلاثة بعد زيارتنا لقبر حمزة بالسيارة وصعودنا الوادي السحيق لنحو ميل بالسيارة أيضاً، ترجلنا في مكان داخل الحاجز الجبلي حيث تنحدر الصخور انحداراً عمودياً تماماً فوق الوادي الرملي في سلسلة من الخوانق الضيقة. لقد كان الجو حاراً جداً بكل المقاييس في ذلك الوقت من السنة، ولكن كل كتف من الجبل أو طبقة منه، أمتعتنا بلمحات رائعة من السهل الغني أسفلنا، بالمآذن الرائعة الأخاذة والقبة الخضراء لمسجد الرسول ﷺ كما لو أنها خارجة من سجادة خضراء - رءوس بساتين النخيل المحيطة بها. وصعدنا الجبل في تأن، بل كنا نجمع نباتاته الجبلية ونحن نصعد، والتي لم يزل السقاف المسنّ يذكر أسماءها المحلية التي عرفها في طفولته، حتى وصلنا القمة فيما يقل عن ساعتين على الأرجح، بعد سير مضنٍ ليس فيه سمة من سمات تسلق الجبال. وهناك، بعد قليل من الطعام والماء لإنعاشنا، ظللنا هناك ما يزيد على الساعة تقريباً نتأمل منظراً لايقل في بهائه عن أي منظر آخر في الجزيرة العربية.

وفي قلب هذه اللوحة تماماً وقف المسجد النبوي والمدينة، في إطار من النخيل، ومحاطين بيدين صارمتين من الحمم البركانية المنتشرة، التي يراها المرء من هذا المكان منتشرة جنوباً وشرقاً في فضاء لاتحصره العين. ففي الشرق يمتد منها لسان ليدخل بين منطقة المدينة ووادي العقيق، بينما كان ظهرها كله مكوناً من السلسلتين البلوريتين لعَيْر والجَمَّاوات، اللتين زيدتا نحو الشمال بجبلي

حبشي وشظف المنخفضين البازلتيين، اللذين يتعرج خلالهما خط السكة الحديدية في طريقه شمالاً، عابراً وادي العقيق بقنطرة منخفضة قريبة من المطار التركي القديم في سلطانة. ومن الشرق، تحت سفح جبل أحد مباشرة، ممر ضيق بينها وبين المد المتحجر من الحمم، يسير فيه الطريق المتجه شرقاً، إلى حائل، والقصيم وبغداد، فوق سلسلة من القمم الصحراوية. وإلى الشمال من القمة التي كنا واقفين عليها انبسط وادي نقمي الرملي، وخلفه الأسوار العالية من وَعيْرَة[1]، وعيرية[2] وجبل البيضاء، والذي يلتقي بوادي العقيق في الطرف النائي لأحد بين زراعة الزبير المروية بالبئر، ونخيل الغابة وطرفائها. ففي هذا الإطار الرائع يقع حوض المدينة الخصب: فهنا رقعة واسعة من ملح أبيض متبخر، في خلفية من النخيل المتلاصق؛ وهناك مجموعة من الحقول، كل واحد منها ملتف حول بئر؛ ثم الأنهار العريضة من بطون السيول، مانحة الحياة، كلها متجهة لتلتقي كالسيف في الفرجة الضيقة في الشمال، التي تنحت خلالها طريقها إلى البحر البعيد.

وهكذا كان المنظر أمامنا - مهد لعقيدة عظيمة، يدين بها ثلث الجنس البشري: وعاء لحركة إنسانية عظيمة أثرت تأثيراً عميقاً في تاريخ ثلاث قارات بين المحيطين الهادي والأطلسي. ولكن ما كان أهون أن تسير الأمور في غير

---

(١) وَعيْرَة: اسم جبل شرقي جبل ثور، وهو أكبر من جبل ثور، وأصغر من جبل أحد -وجبل ثور يقع خلف جبل أحد وهو غير جبل ثور المشهور بمكة- الفيروز آبادي، المغانم المطابة في معالم طابة ص٤٣٠. (المراجعون).

(٢) لم يذكر في معاجم البلدان المعروفة موضع باسم عيرية، أو وعيرية، وإنما ذكر الفيروز آبا دي عن عَرَّام قوله: وعير جبلان أحمران عن يمينك وأنت في بطن العقيق تريد مكة. ونقل أيضاً عن بعض أهالي الحجاز أن بالمدينة جبلين، يقال لأحدهما عَيْر الوارد، وللأخر عير الصادر، وهما متقاربان. انظر المغانم المطابة ص٢٨٨. ونقل في هامشه عن وفاء الوفا أنهما يسميان: عيرين. (المراجعون).

مسارها. فبشيء يسير من قسوة الطبيعة، وتقدم يسير من النهر الذائب من جوف الجبل - لكان السهل قد تأثر بالمصير القاتم الذي يحيط به. ولم تكن المدينة ستحيا لترى عقيدتها الوليدة. ومرة أخرى لو أن ذلك المد لم ينحسر قبل بلوغه سهول فرنسا البعيدة، ويلفظ أنفاسه عند حاجز جبال البرنيز[1]، لكانت ديانة محمد ﷺ قد بلغت باريس ولندن. ولكانت كنيسة إثلبيرت، شأنها شأن أياصوفيا بعد ذلك بعدة قرون، قد وجهت وجهتها نحو القبلة في مكة، ولساد الإسلام أوربا. ولكن ذلك لم يقدر. بينما أعادت المدينة -التي نورت لفترة وجيزة بدورها الذي قامت به- لمكة حقها الشرعي كمولد مضافاً إليه ولاء الشرق. إنه لمن العجيب جداً أن تأسر هذه المدن الثلاث الواقعة في خط طول واحد من أرض صحراء خيال كل العالم تقريباً وتستحوذ على ولائه. ومن الثلاث كانت المدينة أكثرها معاناة من غوائل الدهر وأقلها تغيراً. إن أموال محبي القدس ومعجبيها طورتها حتى أخفت معالمها الأصلية، أما مكة التي عليها استقبال آلاف الزوار في أوديتها الضيقة، في أوقات معلومة، فإنها غدت ضاحية واسعة مختلطة -لبنائها الرئيس- بسكان خليط، يسعى المرء بينهم بلا طائل بحثاً عن أولئك السكان القدامى الذين كانوا قد أخرجوا الرسول ﷺ من بينهم ثم استقبلوه بالترحاب ليدخلوا في الدين.

عدنا إلى قبر حمزة من الطريق نفسها التي كنا قد سلكناها لصعودنا. ولم أجد الوقت إلا في زيارتي الثانية في ١٩٣٥م لمتابعة وادي قناة حتى الغابة التي

(١) تعد جبال البرنيه -جنوب فرنسا بنحو ثلاثين كيلاً - أقصى نقطة وصلها الفتح الإسلامي، بقيادة عنبسة بن سحيم الكلبي الذي قتل هناك سنة ١٠٧هـ. (المراجعون).

يستحيل اختراقها. وإلى تلك النقطة، فالطريق سالكة للسيارات، ولكن محاولات التوغل أكثر من ذلك انتهت بكارثة. فالسيارة، التي كان عليها السير في المسافات الضيقة بين أشجار الطرفاء، استحال التحكم فيها، فتوحلت في بقعة من الرمال الناعمة. ولم نتمكن من إخراجها في نهاية الأمر إلا بمساعدة بعض الزراع السود، العاملين في إحدى بساتين النخيل المجاورة. وفيما عدا أشجار النخيل المتلاصقة التي ذكرناها من قبل - ولكل بستان اسمه الخاص به - فإن الظاهرة الوحيدة التي تلفت نظر المرء في هذا الجانب الأسفل من الوادي حوض طبيعي كبير، مساحته نحو ١٠٠ خطوة، غير عميق هو أم سديرة. ويقال إنه يمتلئ كله حين تكون السيول المتجمعة فيه كثيرة. ولكنه كان جافّاً حين زرته. إن الوادي هنا عرضه نحو ثلاثة أميال ما بين سلسلتي الجبال على جانبيه، ويتكون من المجاري الثلاثة لحوض المدينة. وعلى بعد ميل أو نحوه فيما وراء أقصى نقطة تمكنت من بلوغها، يلتقي به وادي نقمي، الذي يمتد بمحاذاة الجانب الشمالي من أحد. وبعد ذلك بمسافة، وقبل بلوغ محطة السكة الحديدية بالحفيرة، يلتقي المجريان المتحدان بوادي الحمض، الآتي من بين التلال المحيطة بجبل البيضاء، ليواصل سيره بذلك الاسم إلى البحر.

وبين هذا الوادي والخندق أرض واسعة منبسطة نوعاً ما، تفرقت فيها بساتين، لبعضها أهمية لما اقترنت به من أشياء تاريخية أو موروثة. وكنا قد ذكرنا مطار سلطانة الواقع على الضفة اليسرى من مجرى وادي العقيق. لقد كان مهجوراً منذ الحرب. ولكن في ١٩٣٦م استأنف المهمة التي كان الأتراك قد بنوه من أجلها، حين زارته طائرات شركة بنك مصر، لترى مدى إمكانية تقديم خدمات جوية للحجاج المصريين. فالرحلة إلى جدة أمكن قطعها في

ساعتين، مقارنة ببرنامج اليومين بالسيارات، وهو نفسه الذي يقارن برحلة الأحد عشر يوماً بالجمال. لقد ثبت بما لايدع مجالاً للشك إمكانية توفير خدمة جوية؛ ولا شك أن الأغنياء من الحجاج سيزورون مسجد الرسول ﷺ بهذه الطريقة في المستقبل القريب. في واقع الأمر، تشرفت الأميرة خديجة عباس حلمي، أخت خديوي مصر السابق، في مارس من العام نفسه، بأن تكون أول من يحج بالطائرة، مقلعة من جدة إلى المدينة، ومنها إلى مصر.

وغير بعيد من سلطانة تقف أطلال حصن، يبدو كأنه من العصور الوسطى، مسمى باسم سعيد بن العاص، القائد المشهور للجيوش الإسلامية المبكرة، الذي قاد الجيوش لفتح مصر بعد وفاة الرسول ﷺ[1]. إنه مبني بناءً صلباً من قطع مربعة من الحمم البركانية، وله برج دائري في الركن الشمالي الغربي، ويمتد لنحو أربعين خطوة من الشمال إلى الجنوب، ولثلاثين خطوة من الشرق إلى الغرب. وربما كانت به ثلاث أو أربع غرف وفناء واسع، يقع في نصفه الجنوبي، للجمال والخيل الخاصة به. ولأنه يشرف على مسيل وادي العقيق، فإنه مكان ربما اختير لأسباب دفاعية في زمن الرسول ﷺ ليحول دون سلوك جيوش مكة لهذا الطريق السهل. فإن كان الأمر كذلك، فإنه لابد وأنه اختير بعد معركتي أحد والخندق اللتين كان الغزاة قد جاءوا إليهما بهذا الطريق. ويبدو، على الأرجح، أن هذه الأطلال لحصن العهد العثماني المتأخر، في الثلاثينات من القرن الماضي، حين كان خالد باشا مشغولاً بمجابهة مناكفات بني محمد، من بني سالم حرب. وعلى أية حال، فإنه لهذا الوقت من الزمان

(١) الصحيح أن الذي كان له فتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- هو عمرو بن العاص -رضي الله عنه- وليس سعيد بن العاص. (المراجعون).

ينسب حصن لؤاب، الذي يحتل موقعاً بارزاً من بين أطلال يثرب، وفيه برج دائري جميل بالقرب من بستان نخيل المدنية، المعروف بشقيم الذيب، أو مجرد حصن خالد. فهذه، مع حصن سعيد بن العاص، وحصن آخر في قرية عروة، إلى جانب برج عصيفر وحصن آخر كبير على الحرة في الطريق إلى قبا، كلها تمثل سلسلة متصلة من مواقع دفاعية تواجه جبال بني محمد إلى الغرب، ابتداءً من جانبي أحد، حيث يقوم على أرض مرتفعة في كل منهما حصن، إلى ما وراء طريق رابغ.

وفي وسط هذا السهل يقوم مسجد رومه، وهو مكان مفضل لزيارة الحجاج. وقريباً منه، وعلى لسان ممتد من الحمم البركانية، مسجد القبلتين. ولعله أشهر أثر منفرد في كل منطقة المدينة. إنه بناء صغير، لايمكن الاعتقاد بأنه كان على حالته تلك منذ زمن الرسول ﷺ. ولكن من الجائز أنه يقوم في موقع مسجد قديم منذ ذلك العهد، حين كان الناس من المنطقة المجاورة له يصلون متجهين نحو بيت المقدس حين نزل الوحي على محمد ﷺ بتحويل القبلة إلى مكة. فتحول المصلون نحو مكة فوراً، وعمل محراب جديد في الحائط الجنوبي، بينما بقي المحراب الأول في موضعه، وإن لم يستخدم بعد ذلك. لذا يعرف المسجد بمسجد القبلتين، اللتين يعرضهما المرشدون للزوار بكل فخر. والمحراب الشمالي متجه جنوباً حسبما أظهرته بوصلتي، بينما اتجاه المحراب المتجه نحو مكة ينحرف مقدار خمس درجات جنوب شرق.

٧ - مسجد قبـاء

إن هذا التحول في القبلة يفترض فيه أنه حدث في آخر السنة الأولى من الهجرة (يقول البعض في الشهر الحادي عشر منها) . ولكن لايبدو أن هناك اتفاقاً حول المكان الذي وقع فيه هذا التحول . يقول البعض إن الرسول ﷺ كان يصلي في مسجده نفسه (الحرم النبوي)، متجهاً نحو بيت المقدس كعادته آنذاك، واستجابة للوحي، استدار للخلف واتجه نحو مكة، وفي هذا مشكلة صغيرة وهي أنه سيكون قد أكمل باقي الصلاة وظهور المصلين نحو الإمام[1] . وثمة تفسير أيسر يقدمه مسجد قباء، الذي يعرف عنه أن الرسول ﷺ كان يصلي فيه مرات عديدة، والذي لا يزال يحتفظ بموضع قبلة بيت المقدس -وإن لم يكن محرابها كما في مسجد القبلتين- وبقبلة ثانية جنوبية، تسمى «كشف مكة»، تواجه البقعة التي يقال إن الرسول تجلت له فيها الكعبة والمسجد الحرام فعلاً، بمعجزة . وهذه المشكاة في الطرف الشرقي من الحائط الجنوبي، الذي يقع في وسطه المحراب العادي الذي يؤم منه الإمام المصلين في الصلاة، وعلى المصلين صلاة ركعات السنة أمام قبلة «الكشف» .

ويمكن أن يكون مسجد قباء هو مكان هذا التحول المهم ويعضده أثر آخر في المسجد، يعرف بمنزل الآية، ويعتقد بأنه المكان الذي تلقى فيه الرسول ﷺ الوحي ببناء المسجد، وكما في الأثر فإنه أول مسجد بني في الإسلام، حيث كان أوائل الصحابة يصلون فيه قبل قدوم الرسول إليهم، فإن القول بأسبقية مسجد قبا لن يجد ما يدعمه، لأن موقع الحرم بدأت الصلاة فيه من أول يوم وصل فيه الرسول المدينة . لذا، فالذي يبدو أنه الأرجح هو أن النبي محمداً ﷺ، في زيارة له لقباء،

---

(١) ما ورد في كتب السيرة عن تحول القبلة هو أن الرسول ﷺ صلى الظهر في بني سلمة، وبعد أن صلى ركعتين نزل عليه الوحي بالاتجاه نحو الكعبة فاستدار وهو في الصلاة واستدار معه أصحابه . (المراجعون) .

صلى بالناس متجهاً نحو بيت المقدس في ذلك المكان حين جاءه الوحي بتحويل القبلة ترافقه معجزة رؤيا الكعبة، التي تحدد اتجاهها بذلك تلقائيّاً.

وبالقرب من منزل الآية أثر آخر يميل إلى تعضيد الرأي القائل بأنها كانت مكاناً لمحراب كان موجوداً في وقت قدوم الرسول ﷺ. ذلك هو مبرك الناقة، البقعة التي بركت فيها ناقته باختيارها عند قدومها بين المسلمين. والبقعة معلمة بمحراب للصلاة تحت قبة مسطحة تشبه المنصة التي يقف عليها المكبر في بعض المساجد، الذي يردد التكبيرات وغيرها بعد الإمام لإيصال الصوت إلى الجماعات الكبيرة التي لايمكن أن تسمع كلمات الإمام. وفي الجزيرة العربية على أي حال، فإن مكبرات الصوت، وإن كانت واسعة الاستخدام الآن، فقد يأتي اليوم الذي يعم فيه استخدامها في المساجد الكبرى.

والأثر الآخر الوحيد الذي بداخل مسجد قباء هو المنبر غرب المحراب الأوسط. إنه يستخدم فقط للخطب التي يواجه فيها الخطيب المصلين، أما في مكة فإن المنبر يتجه شمال شرق. ومسجد قباء بناء متين جيد، مبني من قطع مكعبة من الحجر البركاني لنحو نصف ارتفاعه، وبآجر من الطين المحلي، سمك الواحدة نحو بوصتين، فوقها، مع شرفات حول السقف. وله مئذنة واحدة، رائعة. وقرب المدخل، وعلى الجانب الغربي، يقف بناء مقبب صغير، كان مسجداً سابقاً، بني لعلي أو فاطمة. وبعد أن انقطع استخدامه كان يستخدم كمطحنة للحبوب، ثم أصبح في الوقت الحاضر مخصصاً لإقامة قوة صغيرة من الحرس ذات مهام متعلقة بالمسجد.

إن للمسجد منظراً رائعاً لوقوعه وسط حدائق على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من باب قباء في المدينة. تمتد خلفه بيوت شبه مهدمة، مبنية من الحجارة

البركانية، لقرية صغيرة، يحفها النخيل. وعلى بعد نحو نصف ميل، وعلى الطريق التي تخترق القرية وتؤدي إلى حقل الحرات، تقف أطلال مسجد صغير لا سقف له تعرف عليه الخبراء الأتراك، الذين كانوا قد أرسلوا في وقت بناء خط سكة حديد الحجاز، بأنه مسجد الضرار (أو المسبّح)، الذي كان اقترن بواقعة ما في زمن الرسول ﷺ مست الصحابة بضرر ما أو أذى[1]. إن هذا التحديد لموقع معقد كهذا لمشكوك فيه. ثم إن المنظر العام الذي يقف فيه المسجد محزن لأقصى ما يمكن أن يتصوره المرء. فعلى أحد جانبيه تقع الأطلال المتهدمة من القرية وبعضها مسكون. وعلى جانبه الآخر يقف جدار من الكسر البركانية يفصل الطرف النائي من بساتين النخيل عن الحرات بعدها، ويمتد بامتداد البصر. إن مساحة بناء المسجد تقدر بعشر خطوات في سبع، مع محراب للصلاة في الحائط الجنوبي الطويل، يقابلها المدخل. وهو بلا قبة أو مئذنة أو سقف. وربما كان مكاناً مكشوفاً لصلاة أهل القرية.

وفي الخلاء، في الحرات، ربما أبعد من ميل إلى الجنوب، يقف تل صغير اسمه الحصن كان فخري باشا، المسئول عن حماية المدينة وقت الحرب، قد بنى عليه حصناً صغيراً. وفي مسافة قريبة جداً، في طرف الحرة، تقع أنأى بساتين قباء من ناحية الجنوب، التي كان يصدر منها في وقت زيارتي صوت عال من ماكينة رستون هورنزبي، مثبتة إلى جدار. وعند تفقدي للبستان تفقداً وثيقاً،

---

(١) قصة مسجد الضرار تتلخص في أن المنافقين بنوه قبل سفر الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، وقالوا إننا بنينا مسجداً للحاجة وللتسهيل، وطلبوا منه أن يصلي فيه، فوعدهم بذلك بعد العودة من غزوة تبوك. وفي الطريق نزل عليه الوحي بعدم الصلاة فيه بقوله تعالى ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾. فأرسل الرسول ﷺ اثنين من الصحابة فأحرقوه. (المراجعون).

وجدته رائعاً حقّاً، صاحبه شخص اسمه صالح القاضي، الذي سره قدوم زائر له، فأخذني في جولة ليريني ما فعله وما ينوي فعله. والماكينة، التي كان وقودها من الفحم النباتي، كانت تعمل بلا انقطاع من الخامسة صباحاً حتى الثامنة مساءً، بلا تأثير يذكر على الكمية التي لاتنفد من ماء البئر العذب الصافي الواقع على بعد عشرين أو خمسة وعشرين قدماً من السطح. والماكينة نفسها كانت غائرة لنحو عشرة أقدام تحت سطح الأرض، في مجرى جانبي.

إن أهم ما في البستان هو مجموعات الزهور المتفتحة - وهو نقيض عجيب لتيه الحرة الكئيب البالغة لطرفه فعلياً ولقرى الحرة على الجانب الآخر. ويجاور البستان نفسه بستان آخر، مشابه له نوعاً ما اسمه العمارية، بينما امتدت بساتين النخل الأخرى منهما لتحيط بقباء من الجانب الشرقي.

وما من بقعة في المنطقة أكثر شعبية لدى الحجاج من قباء. فالطريق قصير، والثمرة عظيمة. لقد وصف الرسول ﷺ ثواب من يتوضأ في بيته ويمضي إلى قباء بثواب عمرة[1]. لذا فإن الحجاج يكونون هناك دائماً في الموسم. إن قلة منهم تفوتها زيارة بئر الخاتم، التي يقال إن خاتم الرسول سقط فيها. وتقع في طرف البستان في الجهة المقابلة من الطريق المؤدي إلى المسجد. ويبدو أن ماءها يأتي من العين نفسها التي تغذي المدينة بقناة عين الزرقاء المغطاة. إن النفق الذي به رأس العين لايكاد يكون إلاّ على مرمى حجر من البئر الدائرية، وهناك مخرج ومجرى فوق مستوى الماء الحالي متصلان بقناة عين الزرقاء في مسافة ليست

(١) يشير المؤلف إلى الحديث الذي رواه ابن ماجة: (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له أجر عمرة). وانظر الأحاديث الواردة في فضل مسجد قباء والصلاة فيه كتاب الأحاديث الواردة في فضائل المدينة للدكتور صالح الرفاعي ص ص٥٢٧-٥٥٦. (المراجعون).

بالبعيدة. أما لماذا انخفض الماء ذلك الانخفاض بحيث لم يعد يبلغ المخرج فأمر لا تفسير له.

ويمكن متابعة قناة الزرقاء بفتحات التهوية في كل الطريق إلى المدينة، وخلالها إلى نقطة ما غير بعيدة إلى الشمال من باب دمشق [1]. وتتولى صيانتها لجنة رسمية، تحت تصرفها ميزانية خاصة، تتزايد باستمرار من هبات المحسنين. وللجنة مكتب دائم في ساحة العينية، التي تسمى بهذا الاسم لوجود الحوض المركزي (المغطى) الذي تزوده القناة المغطاة، والتي كانت تروي حديقة العينية قبل أن تزال ليحل محلها الشارع الذي كنا قد ذكرناه من قبل. وبالإضافة إلى هذه القناة المغطاة فإن المدينة تنتشر فيها بكثرة الآبار العامة والخاصة. ويقع كثير من الصنف الثاني من الآبار في أفنية البيوت الخاصة.

(١) كذا بالأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).

٨ - بعض الضواحي الأخرى للمدينة

في المنطقة المجاورة لقباء توجد قريتان قديمتان، هما العوالي[١] وقربان[٢]، اللتان يزورهما المقيمون أكثر مما يفعل الزوار العابرون، الذين ليس لهم وقت للاستمتاع بالحدائق. يقف في وسط مساكنها البائسة المبنية من الأحجار البركانية مرتفع من التراب والحجارة، ارتفاعه نحو خمسة عشر قدماً، أعلاه مسطح، كما في علي العريض، الأعلى منه قليلاً. وربما لم تكن هاتان القريتان سوى ضاحيتين زراعيتين، وربما كانت البيوت قد بنيت من جديد مرات ومرات منذ إبادة أصحابها اليهود[٣]. والحدائق تضاهي ما بالمدينة. ولم أزر التل المسمى حرة قريظة، وهو على بعد ميل أو ميلين من القريتين في وسط الحرات. ولكن قيل لي إن أطلالاً مهجورة لحصن يهودي أو قرية يمكن أن ترى على سفحه. فربما كان ذلك مسرح حصار بني قريظة واستسلامهم.

وعند متابعة المرء لطرق الحرة شمالاً، ومروره بشريط صغير منعزل يعرف بحرة دشم على اليسار، يأتي إلى المسجد الواضح الصغير لعلي العريض، الذي كنت من قبل قد قلت ما فيه الكفاية عن صلاته اليهودية. ففي الطريق إليه من باب الصدقة، وقرب القناة المغطاة غير المستخدمة الآن، رأيت حوضاً من

---

(١) العوالي: جمع عالية، تقع في أعلى المدينة حيث يبدأ وادي بطحان -المسمى الآن أبو جيدة- وهي أرض زراعية خصبة تشتهر بالنخيل. معجم معالم الحجاز، ج٦ ص١٨٥. (المراجعون).

(٢) قُربان: قرية عامرة بالمدينة في الجنوب الشرقي منها، امتد إليها العمران الآن. معجم معالم الحجاز، ج٧، ص١١١. (المراجعون).

(٣) لفظ إبادة من المصطلحات التي استخدمت في العصر الحديث تعاطفاً مع اليهود الذين قتلهم النازيون. أما ما حصل لليهود في عهد الرسول ﷺ فإنه مبيّن في كتب السيرة. وما حصل لبني قريظة من قتل مقاتليهم فإنه كان نتيجة لخيانتهم في غزوة الخندق، لكن لم يحصل قتل جماعي أو إبادة كما ذكر المؤلف. (المراجعون).

الحجر، ربما كان تابوتاً أصلاً. وهنا يتفرع الطريق إلى جهة اليمين من الطريق الرئيس الشمالي الشرقي، وسرعان ما يصل المسجد الواقع في منطقة مزارع للقمح، مع قليل من النخيل تسقى من عدة آبار، قطر فم الواحدة منها نحو عشرة أقدام، وماؤها وفير في عمق نحو خمسة عشر قدماً تحت مستوى الأرض. ولقد كان عدد هذه الآبار أكبر من ذلك في وقت سابق، أما الآن فإن المنطقة منظرها منظر البائسة المهجورة، وإن كان بأحد المجاري مضخة آلية. ويقع مرتفع مرحب على نحو ١٠٠ متر من الركن الجنوبي الشرقي من البناء، المكون في بعضه من المسجد نفسه، الذي يشغل قسمه الجنوبي الغربي، وفي بعضه الآخر من مسكن طويل من ثلاثة أجزاء. وهناك باب ضخم من الحديد، يؤدي إلى هذا الجزء من البناء، سريع الحركة، كاد أن يتسبب في كارثة حينما كانت المرأة التي استقبلتنا تعرِّفني بالمكان. فبينما هي تشرح لرفاقي شيئاً ما، رجع الباب الضخم ببطء دون أن تفطن إليه. ولحسن الحظ قفزت في الوقت المناسب لأنقذ طفلها الصغير من ضربة ربما كانت موجعة. كانت هناك بضع نخلات في فناء البناء حيث كان القسم الخاص بالمسجد على جانبه الذي كانت أهم سماته القبران المتواضعان لعلي العريض (ابن الإمام جعفر الصادق) وابنه عبد الرحمن[1]، وكذلك ثلاثة قبور متواضعة لأنصار الرسول ﷺ. وترتفع مئذنة واحدة وسط الجانب الغربي للبناء، الذي يكونّ شكل مستطيل طوله خمس وخمسون خطوة وعرضه ثمان وعشرون.

(١) تكرر اسم علي العريض في هذه الصفحة والصفحة السابقة، وبعد التحري من خلال الكتب والأشخاص لم نقف على ذكر لاسم علي العريض. أما ما هو موجود الآن فهو مسجد العريض في الشمال الشرقي من المدينة المنورة بالقرب من مسجد مهجور. وللمزيد من المعلومات عن أبناء جعفر الصادق وعن العريض. انظر: فرق الشيعة للنوبختي ص٦٧ وكذلك وفاء الوفاء للسمهودي ص١٢٦٥. (المراجعون).

عند عودتنا للمدينة بطريق أكثر مباشرة، توقفنا لبرهة في أطلال مسجد صغير، اسمه مسجد الإجابة، الذي يخلد المكان الذي دعا فيه الرسول ﷺ وبشر بالنصر على بني قريظة. ولهذا السبب كان هذا المكان مفضلاً للتوسل حتى هدمه السعوديون في ١٩٢٥م، لقبته[١]، وإن لم تكن هناك قبور بالبناء أبداً. وفي هذه المنطقة نفسها، وبالقرب من مقبرة البقيع وباب الجمعة، ثلاثة مساجد صغيرة يفترض أنها ذات علاقة بمولد الحسن والحسين من فاطمة، ابنة الرسول ﷺ. وتسمى البقعة جز المعدة.

تقع دار الفيروزية وحديقتها، حيث كنت قد أقمت في زيارتي في يونيو ١٩٣١م، في مكان ما في يمين طريق الشمال الرئيس خارج باب دمشق[٢]. وكما سبق ذكره، فإن فتحة التهوية الأخيرة للقناة المغطاة للعين الزرقاء تقع على مسافة في أعلى الطريق بجوار كومة من التراب، كانت قبراً ذا قبة لزكي الدين، ابن الإمام الحسن، قبل دخول السعوديين للمدينة. وبعد ذلك بمسافة قصيرة، وعلى ربوة بجانب ممر ضيق (ثنيات الوداع، حيث يلتفت الزوار المودعون ليلقوا تحية الوداع على مسجد الرسول ﷺ)، يقف مسجد الراية، حيث كان الرسول قد وزع الرايات قبل غزوة الخندق. ووراءه تل صغير اسمه جبل أبي عبيد الأكبر، وبين الاثنين منخفض من الأرض يعتقد أنه كان جزءاً من الخندق نفسه، الذي لايعرف أحد مجراه الفعلي وإن كان كثيرون من العلماء المحليين، بمن فيهم صديقي أمين المكتبة، قد تأملوا في الأمر كثيراً ووصلوا إلى

(١) العلة في سبب الهدم واضحة من النص، حيث كانت قبة هذا المسجد مكاناً لممارسة البدع والتوسل بغير الله مما نهى عنه الإسلام، ولذلك كان من أهم واجبات الحكومة السعودية، القيِّمة على أمر الإسلام في هذه البلاد، أن تزيل جميع ما يمس العقيدة الإسلامية. (المراجعون).

(٢) كذا بالأصل، يقصد «الشامي». (المترجم).

ما يبدو أنه تخطيط مناسب له. فإلى اليمين والشمال من هذه البقعة، حين ينظر المرء شمالاً، يمتد الخندق، الذي كان الرسول ﷺ ورجاله قد حفروه ليستر عورة المدينة، في شكل قوس ضحل يصل حرة الشيخين البارزة قرب علي العريض بمكان المجمع الحالي لمحطة اللاسلكي، ويستمر من هناك متجاوزاً الطرف الشمالي لثنيات الوداع إلى الطرف الشمالي النائي من جبل سلع (يعلوه حصن الآن)، ومنه إلى الطرف الشمالي من اللسان الغربي للحرة في المنطقة المجاورة لمسجد القبلتين. وكان جزء من الخندق في الجانب الأيمن من الطريق من هذه النقطة قد صار مكاناً لدفن أنقاض مسجد الرسول ﷺ بعد أن دمرته النيران قبل قرن من الزمان وبذلك عاد وامتلأ مرة أخرى إلى مستواه القديم، وبعد مسافة قصيرة أيضاً يأتي المرء إلى البوابة التي تشبه الحصن لمحطة اللاسلكي، وبعدها يلتف الطريق حول السور الغربي لمجمعها، ويستمر مخترقاً الحقول المكشوفة حتى يصل إلى حصن خالد، القريب من الطرف الشرقي لبساتين نخيل العيون. ويتفرع طريق الشمال الرئيس من هذا الطريق نحو رومة من نقطة قريبة من ربوة أبي عبيد، التي تسمى القرين.

وبعد أن فرغت من وصف المناطق المحيطة بالمدينة بالتفصيل، ينبغي علي أن أقول شيئاً عن المنطقة الوحيدة خارج حدودها، التي يمر بها المرء مروراً عابراً في تشوقه للوصول للمدينة، والتي يمكن أن يقضي المرء وقتاً فيها للتأمل. تلك هي أبيار علي، الواقعة على ضفتي وادي الحِسَاء (وهو اسم وادي العقيق قبل دخوله المدينة) في الفجوة الواسعة ما بين سلسلتي عَيْر (وعلى ما أعتقد، المعروف بتل الجحيم) والجَمَّاوات، التي كانت صخورها الوردية قد بني منها مسجد الرسول ﷺ في هيئته الحالية. وبخروج المرء من باب العنبرية وسيره

بمحاذاة فناء المحطة إلى طرف الحرة، يأتي بعد نحو كيلومترين ونصف إلى مسجد عروة وقريته على الضفة اليمنى لوادي العقيق. ويقال إن ماء البئر الكبيرة هناك أطيب ما في المنطقة كلها، وأن الوجهاء من أهل المدينة يبعثون بمن يذهب ليأتيهم بمائهم من ذلك المكان البعيد. وبعد كيلومتر آخر يمر الطريق بحصن قديم، قائم فوق الربوة السوداء على الضفة اليمنى للوادي. لذا، وعلى بعد مسافة طولها ثماني كيلومترات من العنبرية، يصل المرء قرية أبيار علي البائسة. ووراء القرية، وفي وسط رائع من النخيل على الضفة اليمنى للمجرى، يقف مسجد مطلي باللون الأبيض، بمئذنة تسر المرء، وباستراحة تعرف بالديوان، جدرانها مليئة بكتابات تذكارية من الزوار. وفي اتجاه منبع الوادي، وبصفة خاصة على الضفة اليمنى، بعض مزارع الواحات الصغيرة - قرية الذيانية على الضفة اليسرى قرب بستان النخيل الرئيس في أبيار علي نفسها والفضية والحمية والعويدية، على الجانب المقابل، وعلوة بعد مسافة أيضاً، حيث ينحني المجرى بمحاذاة أسفل سلسلة الأسمر. وبعد ذلك ينحني الوادي مرة ثانية جنوباً حول جبل حمراء الأسد، التي كانت مكان معسكر القنصل البريطاني (س. ر. جوردان) في آخر ١٩٢٦م للمفاوضات الأولى الفاشلة حول اتفاقية بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا العظمى.

وفي السنة التالية بعث السير جلبرت كلايتون لاستئناف المفاوضات التي انقطعت، فكانت اتفاقية جدة هي الثمرة. أما من أين ينبع وادي الحسَاء فأمر لا أعرفه، ولعله من المنحدرات العالية لجبل ورقان، أو مما جاورها. وفي أبيار علي ينبغي على الحجاج العائدين من المدينة إلى مكة ارتداء ملابس الإحرام للعمرة - والسكنى هناك في أكواخ من القصب، وقلال الفخار، والمرطبات

ونحو ذلك. ويناقش الشيخ إبراهيم الخربوطي قائلا بأنه وإن كان الإحرام من أبيار علي جائزاً، فإنه لمن الأفضل فعلاً في حالة الحجاج العائدين من المدينة تأجيله حتى رابغ، وربما من المكان المعروف بالجحفة، نحو عشرة أميال جنوبها، وهو ميقات حجاج مصر، القادمين بطريق الساحل إلى مكة. وبما أن الجحفة لم تعد واقعة في طريق الحج، وبخاصة في زمن السيارات هذا، فلعل لأبيار علي الآن الحق في طلب هذا الشرف مثلها مثل أي مكان آخر. ولكن الرحلة الطويلة بالجمل، حاسر الرأس - وبنزر يسير من الملابس - سواء أكانت في حر الصيف أم في البرد أم المطر - لابد أن تكون مرهقة تماماً لأولئك الحجاج غير المحظوظين الذين لايقدرون على نفقة السفر بالسيارة. وبهذه المناسبة، فإنه لابد من سابقة يبدؤها أحد بالسفر جواً، ذلك لأن أبيار علي ليس بها تسهيلات للهبوط، وربما تكون الجحفة مثلها أيضا. لذا فلا بد من أن تحل محليهما رابغ أو جدة - وربما مطار سلطانة في المدينة نفسها.